المحسنين، فقال:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ [أي:] للتكذيب، المتصفين بالتصديق، في أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم.

ولا يكونون كذلك، إلا بأدائهم الواجبات، وتركهم المحرمات.

﴿فِي ظِلَالٍ﴾ من كثرة الأشجار المتنوعة، الزاهية البهية.

﴿وَعُيُونٍ﴾ جارية من السلسبيل، والرحيق وغيرهما.

﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾، أي: من خيار الفواكه وطيبها، ويقال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ من المآكل الشهية، والأشربة اللذيذة، ﴿هَنِيئًا﴾، أي: من غير منغص ولا مكدر.

ولا يتم هناؤه، حتى يسلم الطعام والشراب، من كل آفة ونقص، وحتى يجزموا أنه غير منقطع، ولا زائل.

﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأعمالكم، هي السبب الموصل لكم إلى هذا النعيم[١] المقيم.

وهٰكذا كل من أحسن في عبادة الله، وأحسن إلى عباد الله، ولهٰذا قال:

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ○ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، ولو لم يكن لهم من هٰذا الويل، إلا فوات هٰذا النعيم، لكفى به حرمانًا وخسرانًا[٢].

(٤٦-٥٠) ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ○ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ○ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ○ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ○ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ هٰذا تهديد ووعيد للمكذبين، أنهم وإن أكلوا في الدنيا، وشربوا وتمتعوا باللذات، وغفلوا عن القربات، فإنهم مجرمون، يستحقون ما يستحقه المجرمون، فستنقطع عنهم اللذات، وتبقى عليهم التبعات.

ومن إجرامهم أنهم إذا أمروا بالصلاة التي هي أشرف العبادات، وقيل لهم: ﴿ارْكَعُوا﴾ امتنعوا من ذٰلك.

فأي إجرام فوق هذا؟ وأي تكذيب يزيد على هذا؟!

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، ومن الويل عليهم أنهم تنسد عليهم أبواب التوفيق، ويحرمون كل خير، فإنهم إذا كذبوا هٰذا القرآن الكريم، الذي هو أعلى مراتب الصدق واليقين على الإطلاق.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾، أبالباطل الذي هو كاسمه، لا يقوم عليه شبهة فضلًا عن الدليل؟ أم بكلام كل مشرك كذاب، أفاك مبين؟.

فليس بعد النور المبين، إلا دياجي الظلمات، ولا بعد الصدق، الذي قامت الأدلة والبراهين على صدقه إلا الكذب الصراح، والإفك المبين[٣] الذي لا يليق إلا بمن يناسبه.

أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

فتبًّا لهم، ما أعماهم! وويحًا لهم ما أخسرهم وأشقاهم!.

نسأل الله العفو والعافية، [إنه جواد كريم. تمت].

تفسير سورة عم

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١-٥) ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ○ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ○ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ○ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ○ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ أي: عن أي شيء يتساءل المكذبون بآيات الله؟ ثم بيَّن ما يتساءلون عنه فقال: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ○ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، أي: عن الخبر العظيم الذي طال فيه نزاعهم، وانتشر فيه خلافهم على وجه التكذيب والاستبعاد، وهو النبأ الذي لا يقبل الشك، ولا يدخله

---

(١) في ب: إلى جنات النعيم. (٢) في ب: حزنًا وحرمانًا. (٣) في ب: الذي قامت عليه الأدلة والبراهين القاطعة إلا الإفك الصراح والكذب المبين.

الريب، ولكن المكذبون بلقاء ربهم لا يؤمنون، ولو جاءتهم كل آية، حتى يروا العذاب الأليم.

ولهذا قال: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ○ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾، أي: سيعلمون إذا نزل بهم العذاب، ما كانوا به يكذبون، حين يُدَعُّون إلى نار جهنم دعًا.

ويقال لهم: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

ثم بين[1] تعالى النعم والأدلة الدالة على صدق ما أخبرت[2] به الرسل، فقال:

(٦-١٦) ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ○ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ○ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ○ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ○ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ○ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ○ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ○ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ○ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ○ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ○ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ أي: أما أنعمنا عليكم بنعم جليلة، فجعلنا لكم ﴿الْأَرْضَ مِهَادًا﴾، أي: ممهدة مهيأة[3] لكم ولمصالحكم، من الحروث، والمساكن والسبل.

﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ تمسك الأرض لئلا تضطرب بكم وتميد.

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾، أي: ذكورًا وإناثًا، من جنس واحد، ليسكن كل منهما إلى الآخر، فتكون[4] المودة والرحمة، وتنشأ عنهما الذرية، وفي ضمن هذا الامتنان بلذة المنكح.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾، أي: راحة لكم، وقطعًا لأشغالكم التي متى تمادت بكم، أضرت بأبدانكم، فجعل الله الليل والنوم يغشى الناس، لتنقطع[5] حركاتهم الضارة، وتحصل راحتهم النافعة.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾، أي: سبع سماوات، في غاية القوة، والصلابة والشدة.

وقد أمسكها الله بقدرته، وجعلها سقفًا للأرض، فيها عدة منافع لهم، ولهذا ذكر من منافعها الشمس، فقال:

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ نبه بالسراج على النعمة بنورها الذي صار كالضرورة للخلق، وبالوهاج الذي فيه الحرارة على حرارتها، وما فيها من المصالح[6].

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾، أي: السحاب ﴿مَاءً ثَجَّاجًا﴾، أي: كثيرًا جدًا.

﴿لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا﴾ من برٍّ وشعير، وذرة، وأرز، وغير ذلك مما يأكله الآدميون.

﴿وَنَبَاتًا﴾ يشمل سائر النبات، الذي جعله الله قوتًا لمواشيهم.

﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾، أي: بساتين ملتفة، فيها من جميع أصناف الفواكه اللذيذة.

سُورَةُ النَّبَإِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

فالذي أنعم عليكم بهذه النعم العظيمة[7] التي لا يقدر قدرها، ولا يحصى عدها كيف [تكفرون به، و]تكذبون ما أخبركم به، من البعث والنشور؟ أم كيف تستعينون بنعمه على معاصيه، وتجحدونها؟!

(١٧-٣٠) ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ○ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ○ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ○ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ○ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ○ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ○ لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ○ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ○ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ○ جَزَاءً وِفَاقًا ○ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ○ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ○ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ○ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة الذي يتساءل عنه المكذبون، ويجحده المعاندون، أنه يوم عظيم، وأن الله جعله ﴿مِيقَاتًا﴾ للخلق ﴿يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، ويجري فيه من الزعازع

---

(١) في ب: ثم ذكر. (٢) في ب: على ما جاءت به الرسل. (٣) في ب: مذللة. (٤) في ب: فتتكون. (٥) في ب: لتسكن. (٦) في ب: الذي صار ضرورة للخلق، وبالوهاج: وهي حرارتها على ما فيها من الإنضاج والمنافع. (٧) في ب: الجليلة.

والقلاقل ما يشيب له الوليد، وتنزعج له القلوب.

فتسير الجبال، حتى تكون كالهباء المبثوث، وتشقق[1] السماء حتى تكون أبوابا، ويفصل الله بين الخلائق، بحكمه الذي لا يجور، وتوقد نار جهنم التي أرصدها الله، وأعدها للطاغين وجعلها مثوى لهم ومآبا، وأنهم يلبثون فيها أحقابًا كثيرة، و «الحقب» على ما قاله كثير من المفسرين: ثمانون سنة.

وهم إذا وردوها[2] ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾، أي: لا ما يبرد جلودهم، ولا ما يدفع ظمأهم.

﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾، أي: ماء حارًا، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم.

﴿وَغَسَّاقًا﴾ وهو صديد أهل النار، الذي هو في غاية النتن، وكراهة المذاق.

وإنما استحقوا هٰذه العقوبات الفظيعة جزاءً لهم ووفاقًا على ما عملوا من الأعمال الموصلة إليها لم يظلمهم الله، ولٰكن ظلموا أنفسهم، ولهٰذا ذكر أعمالهم التي استحقوا بها هٰذا الجزاء، فقال:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾، أي: لا يؤمنون بالبعث، ولا أن الله يجازي الخلق، بالخير والشر، فلذٰلك أهملوا العمل للآخرة.

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾، أي: كذبوا بها تكذيبًا واضحًا صريحًا، وجاءتهم البينات فعاندوها.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ من قليل وكثير، وخير وشر ﴿أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ أي: كتبناه[3] في اللوح المحفوظ، فلا يخشى المجرمون، أنا عذبناهم بذنوب لم يعملوها، ولا يحسبوا أنه يضيع من أعمالهم شيء، أو ينسى منها مثقال ذرة.

كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

﴿فَذُوقُوا﴾ أيها المكذبون! هٰذا العذاب الأليم، والخزي الدائم ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ وكل وقت وحين يزداد عذابهم.

[وهٰذه الآية أشد الآيات في شدة عذاب أهل النار، أجارنا الله منها].

(٣١-٣٦) ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ○ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ○ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ○ وَكَأْسًا دِهَاقًا ○ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ○ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ لما ذكر حال المجرمين، ذكر مآل المتقين، فقال:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ أي[4]: الذين اتقوا سخط ربهم، بالتمسك بطاعته، والانكفاف عما يكرهه[5] فلهم مفاز ومنجى، وبُعْدٌ عن النار.

وفي ذٰلك المفاز لهم ﴿حَدَائِقَ﴾ وهي البساتين الجامعة لأصناف الأشجار الزاهية في الثمار التي تتفجر بين خلالها الأنهار، وخص الأعناب لشرفه وكثرته في تلك الحدائق.

ولهم فيها زوجات على مطالب النفوس ﴿كَوَاعِبَ﴾ وهي النواهد اللاتي لم تتكسر ثديهن من شبابهن وقوتهن ونضارتهن[6].

والأتراب: اللاتي على سن واحد متقارب.

ومن عادة الأتراب أن يكنّ متآلفات، متعاشرات، وذٰلك السن الذي هن فيه ثلاث وثلاثون سنة، في أعدل سن الشباب[7].

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾، أي: مملوءة من رحيق، لذة للشاربين.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾، أي: كلامًا لا فائدة فيه ﴿وَلَا كِذَّابًا﴾، أي: إثمًا.

كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ○ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾.

وإنما أعطاهم الله هٰذا الثواب الجزيل [من فضله وإحسانه] ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ﴾ لهم ﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾، أي: بسبب أعمالهم التي وفقهم الله لها، وجعلها ثمنًا لجنته ونعيمها[8].

(٣٧-٤٠) ﴿رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ○ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ○ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ○ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ أي: الذي أعطاهم هٰذه العطايا هو ربهم ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الذي خلقها ودبّرها ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ الذي رحمته وسعت كل شيء، فرباهم ورحمهم، ولطف بهم، حتى أدركوا ما أدركوا.

ثم ذكر عظمته وملكه العظيم يوم القيامة، وأن جميع الخلق كلهم ذٰلك اليوم ساكتون لا يتكلمون، و ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾، ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ فلا يتكلم أحد إلا بهٰذين الشرطين:

أن يأذن الله له في الكلام، وأن يكون ما تكلم به صوابا.

لأن ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ﴾ هو ﴿الْحَقُّ﴾ الذي لا يروج فيه الباطل،

---

(١) في ب: وتنشق. (٢) في ب: فإذا وردوها. (٣) في ب: أثبتناه.
(٤) كذا في ب، وفي أ: فقال: إن المتقين. (٥) في ب: عن معصيته.
(٦) كذا في ب، وفي أ: وهي الناهد التي لم ينكسر ثديها من شبابها ونضارتها وقوتها. (٧) في ب: أعدل ما يكون من الشباب. (٨) في ب: وجعلها سببًا للوصول إلى كرامته.

ولا ينفع فيه الكذب.

وفي ذلك اليوم ﴿يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾ وهو جبريل عليه السلام، الذي هو أشرف الملائكة[1].

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أيضًا يقوم الجميع ﴿صَفًّا﴾ خاضعين لله ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ إلا بما أذن لهم الله به[2].

فلما رغَّب، ورهَّب، وبشَّر، وأنذر قال:

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾، أي: عملًا وقدم صدق، يرجع إليه يوم القيامة.

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ لأنه قد أزف مقبلًا، وكل ما هو آت فهو قريب.

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، أي: هذا الذي يهمه، ويفزع إليه، فلينظر في هذه الدنيا إليه[3] كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ الآيات.

فإن وجد خيرًا فليحمد الله، وإن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه، ولهذا كان الكفار يتمنون الموت من شدة الحسرة والندم.

نسأل الله أن يعافينا من الكفر والشر كله، إنه جواد كريم.

تم تفسير سورة عم، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة النازعات

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١-١٤) ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ○ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ○ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ○ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ○ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ○ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ○ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ○ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ○ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ○ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ○ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ○ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ○ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ○ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ هذه الإقسامات بالملائكة الكرام وأفعالهم الدالة على كمال انقيادهم لأمر الله، وإسراعهم في تنفيذ أمره، يحتمل أن المقسم عليه: الجزاء والبعث، بدليل الإتيان بأحوال القيامة بعد ذلك.

ويحتمل أن المقسم عليه، والمقسم به متحدان، وأنه أقسم على الملائكة لأن الإيمان بهم أحد أركان الإيمان الستة.

ولأن في ذكر أفعالهم هنا ما يتضمن الجزاء الذي تتولاه الملائكة عند الموت وقبله، وبعده، فقال:

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾ وهم الملائكة التي تنزع الأرواح بقوة،

الجزء الثلاثون ٥٨٣ سورة النبأ

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾

سُورَةُ النَّازِعَاتِ — ترتيبها ٧٩ — آياتها ٤٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾

وتغرق في نزعها، حتى تخرج الروح، فتجازى بعملها.

﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ وهم الملائكة أيضًا، تجتذب الأرواح بقوة ونشاط، أو أن النشط يكون لأرواح المؤمنين، والنزع لأرواح الكفار[4].

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ﴾ أي: المترددات في الهواء صعودًا ونزولًا ﴿سَبْحًا﴾.

﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ﴾ لغيرها ﴿سَبْقًا﴾ فتبادر لأمر الله، وتسبق الشياطين في إيصال الوحي إلى رسل الله، حتى لا تسترقه[5].

﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ الملائكة الذين وكلهم الله أن يدبروا كثيرًا من أمور العالم[6]، العلوي والسفلي، من الأمطار، والنبات، والأشجار، والرياح، والبحار، والأجنة، والحيوانات، والجنة، والنار [وغير ذلك].

---

(١) في ب: أفضل الملائكة. (٢) في ب: إلا بإذنه. (٣) في ب: فلينظر في هذه الدار ما قدم لدار القرار. (٤) هكذا في ب معدلًا في هامش النسخة بخط الشيخ، وفي أ: أن النزع يكون لأرواح المؤمنين والنشط لأرواح الكفار. (٥) في ب: لئلا تسترقه. (٦) في ب: الذين جعلهم الله يدبرون كثيرًا من أمور العالم.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ وهي قيام الساعة.

﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ أي: الرجفة الأخرى التي تردفها، وتأتي تِلْوَها.

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ أي: موجفة ومنزعجة من شدة ما ترى وتسمع.

﴿أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾ أي: ذليلة حقيرة، قد ملك قلوبهم الخوف، وأذهل أفئدتهم الفزع، وغلب عليهم التأسف، [واستولت عليهم] الحسرة.

يقولون، أي: الكفار في الدنيا، على وجه التكذيب: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً﴾، أي: بالية فتاتا.

﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾، أي: استبعدوا أن يبعثهم الله، ويعيدهم بعدما كانوا عظامًا نخرة، جهلًا [منهم] بقدرة الله، وتجرُّؤًا عليه.

قال الله في بيان سهولة هٰذا الأمر عليه: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾، ينفخ فيها في الصور.

فإذا الخلائق كلهم ﴿بِٱلسَّاهِرَةِ﴾، أي: على وجه الأرض، قيام ينظرون، فيجمعهم الله، ويقضي بينهم بحكمه العدل، ويجازيهم.

(١٥-٢٦) ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ يقول [الله] تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾، وهٰذا الاستفهام عن أمر عظيم متحقق وقوعه.

أي: هل أتاك حديثه ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ وهو المحل الذي كلمه الله فيه، وامتنّ عليه بالرسالة، واختصه بالوحي، والاجتباء[1] فقال له:

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، أي: فانهه عن طغيانه، وشركه، وعصيانه، بقول لين، وخطاب لطيف لعله ﴿يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾

﴿فَقُلْ﴾ له: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾، أي: هل لك في خصلة حميدة، ومحمدة جميلة، يتنافس فيها أولو الألباب، وهي أن تُزَكِّي نفسك، وتطهرها من دنس الكفر والطغيان، إلى الإيمان والعمل الصالح؟.

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، أي: أدلك عليه، وأُبيِّنُ لك مواقع رضاه، من مواقع سخطه.

﴿فَتَخْشَىٰ﴾ الله، إذا علمت الصراط المستقيم، فامتنع فرعون مما دعاه إليه موسى.

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾، أي: جنس الآية الكبرى، فلا ينافي تعددها ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ﴾.

﴿فَكَذَّبَ﴾ بالحق ﴿وَعَصَىٰ﴾ الأمر، ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾، أي: يجتهد في مبارزة الحق ومحاربته.

﴿فَحَشَرَ﴾ جنوده أي: جمعهم ﴿فَنَادَىٰ ۝ فَقَالَ﴾ لهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ فأذعنوا له، وأقروا بباطله، حين استخفهم.

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي: صارت عقوبته[2] **دليلًا** وزاجرًا، ومبينة لعقوبة الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾، فإن من يخشى الله، هو الذي ينتفع بالآيات والعبر.

فإذا رأى عقوبة فرعون، عرف أن كل من تكبر وعصى، وبارز الملك الأعلى، عاقبه في الدنيا والآخرة، وأما من ترحلت خشية الله من قبله، فلو جاءته كل آية لم يؤمن [بها].

(٢٧-٣٣) ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ﴾ يقول تعالى - مبينًا **دليلًا** واضحًا لمنكري البعث، ومستبعدي إعادة الله للأجساد -:

﴿ءَأَنتُمْ﴾ أيها البشر ﴿أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ ذات الجرم العظيم، والخلق القوي، والارتفاع الباهر ﴿بَنَىٰهَا﴾ الله.

﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾، أي: جرمها وصورتها ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ بإحكام وإتقان، يحير العقول، ويذهل الألباب.

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾، أي: أظلمه، فعمت الظلمة [جميع] أرجاء السماء، فأظلم وجه الأرض.

﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾، أي: أظهر فيه النور العظيم، حين أتى بالشمس، فامتد[3] الناس في مصالح دينهم ودنياهم.

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد خلق السماء ﴿دَحَىٰهَآ﴾، أي: أودع فيها منافعها.

وفسر ذٰلك بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾، أي: ثبتها في الأرض.

فَدَحْيُ الأرض بعد خلق السماء، كما هو نص هٰذه الآيات [الكريمة].

وأما خلق نفس الأرض، فمتقدم على خلق السماء كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ إلى أن

---

(١) في ب: وابتعثه بالوحي واجتباه. (٢) في ب: أي: جعل الله عقوبته. (٣) في ب: فانتشر.

قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[١].

فالذي خلق السماوات العظام وما فيها من الأنوار والأجرام، والأرض الكثيفة الغبراء، وما فيها من ضروريات الخلق ومنافعهم، لا بد أن يبعث الخلق المكلفين، فيجازيهم على أعمالهم، فمن أحسن فله الحسنى، ومن أساء فلا يلومن إلا نفسه.

ولهٰذا ذكر بعد هٰذا القيام الجزاء[٢]، فقال:

(٣٤-٤١) ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ○ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ○ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ○ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ○ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ○ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ○ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ○ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ أي: إذا جاءت القيامة الكبرى، والشدة العظمى التي يهون عندها كل شدة، فحينئذ يذهل الوالد عن ولده، والصاحب عن صاحبه، [وكل محب عن حبيبه].

و ﴿يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ﴾ في الدنيا، من خير وشر، فيتمنى زيادة مثقال ذرة في حسناته، ويغمّه ويحزن لزيادة مثقال ذرة في سيئاته.

ويعلم إذ ذاك أن مادة ربحه وخسرانه ما سعاه في الدنيا، وينقطع كل سبب ووصلة كانت في الدنيا، سوى الأعمال.

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾، أي: جعلت في البراز، ظاهرة لكل أحد قد برزت[٣] لأهلها، واستعدت لأخذهم، منتظرة لأمر ربها.

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾، أي: جاوز الحد، بأن تجرأ على المعاصي الكبار، ولم يقتصر على ما حده الله.

﴿وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ على الآخرة، فصار سعيه لها، ووقته مستغرقًا في حظوظها وشهواتها، ونسي الآخرة وترك العمل لها.

﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [له] أي: المقر والمسكن لمن هٰذه حاله.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي: خاف القيام عليه، ومجازاته بالعدل فأثّر هٰذا الخوف في قلبه، فنهى نفسه عن هواها الذي يقيدها[٤] عن طاعة الله، وصار هواه تبعًا لما جاء به الرسول، وجاهد الهوى والشهوة، الصادّين عن الخير.

﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ﴾ [المشتملة على كل خير وسرور ونعيم] ﴿هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ لمن هٰذا وصفه.

(٤٢-٤٦) ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ○ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ○ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ○ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ○ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ أي: يسألك المتعنتون

إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾

سورة عبس — ترتيبها ٨٠ — آياتها ٤٢

المكذبون بالبعث ﴿عَنِ السَّاعَةِ﴾ متى وقوعها و﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾، فأجابهم الله بقوله:

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا﴾، أي: ما الفائدة لك ولهم في ذكرها، ومعرفة وقت مجيئها؟ فليس تحت ذٰلك نتيجة. ولهٰذا لما كان علم العباد للساعة، ليس لهم فيه مصلحة دينية ولا دنيوية، بل المصلحة في خفائه عليهم، طوى علم ذٰلك عن جميع الخلق، واستأثر بعلمه فقال:

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾، أي: إليه ينتهي علمها، كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٥].

---

(١) وقع هنا سبق قلم من الشيخ - رحمه الله - فقال: إلى أن قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ وصواب ذلك ما أثبته. (٢) في ب: ذكر بعد هذا قيام الساعة ثم الجزاء. (٣) في ب: هيئت. (٤) في ب: الذي يصدها. (٥) وردت الآية ناقصة في وسطها من نسخة أ، ووردت ناقصة من آخرها من نسخة ب فأتممتها.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾، أي: إنما نذارتك، [نفعها] لمن يخشى مجيء الساعة، ويخاف الوقوف بين يديه، فهم الذين لا يهمهم سوى الاستعداد لها، والعمل لأجلها.

وأما من لا يؤمن بها، فلا يبالى به، ولا بتعنته، لأنه تعنت مبني على العناد والتكذيب، وإذا وصل إلى هٰذه الحال، كان الإجابة عنه عبثًا، ينزه الحكيم عنه.

[تمت]، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة عبس

وهي مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١-١٠) ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ○ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ○ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ○ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ○ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ○ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ○ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ○ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ○ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ○ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾ سبب نزول هٰذه الآيات الكريمات أنه جاء رجل من المؤمنين أعمى يسأل النبي ﷺ ويتعلم منه.

وجاءه رجل من الأغنياء، وكان ﷺ حريصًا على هداية الخلق، فمال ﷺ [وأصغى] إلى الغني، وصدّ عن الأعمى الفقير رجاء لهداية ذٰلك الغني، وطمعًا في تزكيته، فعاتبه الله بهٰذا العتاب اللطيف فقال:

﴿عَبَسَ﴾ [أي:] في وجهه ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في بدنه لأجل مجيء الأعمى له.

ثم ذكر الفائدة في الإقبال عليه فقال:

﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ﴾ أي: الأعمى ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾ أي: يتطهر عن الأخلاق الرذيلة ويتصف بالأخلاق الجميلة؟.

﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾؟ أي: يتذكر ما ينفعه، فيعمل[1] بتلك الذكرى.

وهٰذه فائدة كبيرة، هي المقصودة من بعثة الرسل، ووعظ الوعاظ، وتذكير المذكرين، فإقبالك على من جاء بنفسه مفتقرًا لذلك منك[2]، هو الأليق الواجب.

وأما تصديك وتعرضك للغني المستغني الذي لا يسأل، ولا يستفتي لعدم رغبته في الخير مع تركك من هو أهم منه، فإنه لا ينبغي لك، فإنه ليس عليك أن لا يزكّى، فلو لم يتزكَّ، فلست بمحاسب على ما عمله من الشر.

فدل هٰذا على القاعدة المشهورة أنه: «لا يترك أمر معلوم

الجزء الثلاثون ٥٨٥ سورة عبس

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴿١٤﴾ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

لأمر موهوم، ولا مصلحة متحققة لمصلحة متوهمة».

وأنه ينبغي الإقبال على طالب العلم المفتقر إليه الحريص عليه أزيد من غيره.

(١١-٣٢) ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ○ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ○ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ○ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ○ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ○ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ○ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ○ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ○ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ○ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ○ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ○ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ○ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ○ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ○ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ○ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ○ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ○ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ○ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ○ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ○ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ○ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ يقول تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ أي: حقًّا إن هٰذه الموعظة تذكرة من الله يذكر بها عباده، ويبين لهم في كتابه ما يحتاجون إليه، ويبين الرشد من الغي، فإذا تبين ذٰلك ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي: عمل به كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾.

ثم ذكر محل هٰذه التذكرة وعظمها ورفع قدرها فقال:

---

(١) في ب: فينتفع. (٢) في ب: مفتقرًا لذلك مقبلًا.

﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ○ مَرْفُوعَةٍ﴾ القدر والرتبة ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾ [من الآفات و]عن أن تنالها أيدي الشياطين أو يسترقوها.

بل هي ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ وهم الملائكة [الذين هم] السفراء بين الله وبين عباده.

﴿كِرَامٍ﴾ أي: كثيري الخير والبركة ﴿بَرَرَةٍ﴾ قلوبهم وأعمالهم.

وذلك كله حفظ من الله لكتابه، أن جعل السفراء فيه إلى الرسل الملائكة الكرام الأقوياء الأتقياء، ولم يجعل للشياطين عليه سبيلًا، وهذا مما يوجب الإيمان به وتلقّيه بالقبول.

ولكن مع هذا أبى الإنسان إلا كفورًا، ولهذا قال تعالى:

﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ لنعمة الله وما أشد معاندته للحق بعد ما تبين، وهو ما هو؟ هو من أضعف الأشياء خلقه الله من ماء مهين، ثم قدر خلقه وسواه بشرًا سويًّا، وأتقن قواه الظاهرة والباطنة.

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ أي: يسر له الأسباب الدينية والدنيوية، وهداه السبيل [وبيّنه] وامتحنه بالأمر والنهي.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ أي: أكرمه بالدفن، ولم يجعله كسائر الحيوانات التي تكون جيفها على وجه الأرض.

﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ أي: بعثه بعد موته للجزاء.

فالله هو المنفرد بتدبير الإنسان وتصريفه بهذه التصاريف، لم يشاركه فيه مشارك.

وهو - مع هذا - لا يقوم بما أمره الله ولم يقض ما فرضه عليه، بل لا يزال مقصرًا تحت الطلب.

ثم أرشده تعالى إلى النظر والتفكر في طعامه، وكيف وصل إليه بعد ما تكررت عليه طبقات عديدة ويسره له فقال:

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ○ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ أي: أنزلنا المطر على الأرض بكثرة.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ﴾ للنبات ﴿شَقًّا ○ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ أصنافًا مصنفة من أنواع الأطعمة اللذيذة والأقوات الشهية ﴿حَبًّا﴾ وهذا شامل لسائر الحبوب على اختلاف أصنافها.

﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ وهو القتّ ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾.

وخصّ هذه الأربعة لكثرة فوائدها ومنافعها.

﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ أي: بساتين فيها الأشجار الكثيرة الملتفة.

﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ الفاكهة: ما يتفكه فيه الإنسان من تين وعنب وخوخ ورمان، وغير ذلك.

والأبّ: ما تأكله البهائم والأنعام، ولهذا قال: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ التي خلقها الله وسخرها لكم.

فمن نظر في هذه النعم أوجب له ذلك شكر ربه، وبذل الجهد في الإنابة إليه، والإقبال على طاعته، والتصديق بأخباره.

(٣٣-٤٢) ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ○ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ○ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ○ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ○ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ○ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ○ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ○ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ○ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ○ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ أي: إذا جاءت صيحة القيامة التي تصخ لهولها الأسماع، وتنزعج لها الأفئدة يومئذ، مما يرى الناس من الأهوال وشدة الحاجة لسالف الأعمال.

﴿يَفِرُّ الْمَرْءُ﴾ من أعز الناس عليه وأشفقهم لديه ﴿مِنْ أَخِيهِ ○ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ○ وَصَاحِبَتِهِ﴾ أي: زوجته ﴿وَبَنِيهِ﴾.

وذلك لأنه ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي: قد أشغلته نفسه، واهتم لفكاكها، ولم يكن له التفات إلى غيرها، فحينئذ ينقسم الخلق إلى فريقين: سعداء وأشقياء.

فأما السعداء فوجوههم [يومئذ] ﴿مُسْفِرَةٌ﴾ أي: قد ظهر فيها السرور والبهجة من ما عرفوا من نجاتهم وفوزهم بالنعيم.

﴿ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ﴾ الأشقياء ﴿يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ○ تَرْهَقُهَا﴾ أي: تغشاها ﴿قَتَرَةٌ﴾ فهي سوداء مظلمة مدلهمة قد أيست من كل خير، وعرفت شقاءها وهلاكها.

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين بهذا الوصف ﴿هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ أي: الذين كفروا بنعمة الله وكذبوا بآيات الله، وتجرأوا على محارمه.

نسأل الله العفو والعافية، إنه جواد كريم، [والحمد لله رب العالمين].

تفسير سورة التكوير

[وهي] مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١-١٤) ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ○ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ○ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ○ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ○ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ○ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ○ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ○ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ○ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ○ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ○ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ○ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ○ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ○ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ أي: إذا حصلت هذه الأمور الهائلة تميز الخلق، وعلم كل أحد ما قدمه لآخرته، وما أحضره فيها من خير وشر، وذلك إذا كان يوم القيامة تكور الشمس أي: تجمع وتلف ويخسف القمر ويلقيان في النار.

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ أي: تغيرت، وتساقطت[١] من أفلاكها.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي: صارت كثيبًا مهيلًا، ثم صارت كالعهن المنفوش، ثم تغيرت وصارت هباء منبثًا، وسيرت عن أماكنها.

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ أي: عطل الناس حينئذ نفائس أموالهم التي كانوا يهتمون لها ويراعونها في جميع الأوقات، فجاءهم ما يذهلهم عنها، فنبّه بالعشار - وهي: النوق التي تتبعها أولادها، وهي أنفس أموال العرب إذ ذاك عندهم - على ما هو في معناها من كل نفيس.

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أي: جمعت ليوم القيامة ليقتص الله من بعضها لبعض، ويرى العباد كمال عدله، حتى إنه ليقتص من القرناء للجماء[٢]، ثم يقول لها: كوني ترابًا.

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أي: أوقدت فصارت - على عظمها - نارًا تتوقد.

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أي: قرن كل صاحب عمل مع نظيره، فجمع الأبرار مع الأبرار، والفجار مع الفجار، وزوج المؤمنون بالحور العين، والكافرون بالشياطين، وهٰذا كقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾، ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾، ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾.

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ وهي التي كانت الجاهلية الجهلاء تفعله من دفن البنات وهن أحياء من غير سبب، إلا خشية الفقر، فتسأل: ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ ومن المعلوم أنها ليس لها ذنب ففي هٰذا توبيخ وتقريع لقاتليها[٣].

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ﴾ المشتملة على ما عمله العاملون من خير وشر ﴿نُشِرَتْ﴾ وفرقت على أهلها، فآخذٌ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ أي: أزيلت كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾، ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾.

﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أي: أوقد عليها فاستعرت، والتهبت التهابًا لم يكن لها قبل ذٰلك.

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ أي: قُرِّبت للمتقين.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ أي: كل نفس، لإتيانها في سياق الشرط.

﴿مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ أي: ما حضر لديها من الأعمال [التي قدمتها] كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾.

وهٰذه الأوصاف التي وصف الله بها يوم القيامة، من الأوصاف التي تنزعج لها القلوب، وتشتد من أجلها الكروب، وترتعد الفرائص، وتعم المخاوف، وتحث أولي الألباب للاستعداد لذٰلك اليوم، وتزجرهم عن كل ما يوجب اللوم، ولهٰذا قال بعض السلف: من أراد أن ينظر ليوم القيامة كأنه رأْيُ عين فليتدبر سورة ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾.

(١٥-٢٩) ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أقسم تعالى ﴿بِٱلْخُنَّسِ﴾ وهي الكواكب التي تخنس أي: تتأخر عن سير الكواكب المعتاد إلى جهة المشرق، وهي النجوم السبعة السيارة: «الشمس»، و «القمر»، و «الزهرة»، و «المشتري»، و «المريخ»، و«زحل»، و «عطارد»، فهٰذه السبعة لها سيران: سير إلى جهة المغرب مع باقي الكواكب والأفلاك[٤].

وسير معاكس لهٰذا من جهة المشرق تختص به هٰذه السبعة دون غيرها. فأقسم الله بها في حال خنوسها أي: تأخرها، وفي حال جريانها وفي حال كنوسها أي: استتارها بالنهار.

ويحتمل أن المراد بها جميع النجوم[٥]: الكواكب السيارة وغيرها.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ أي: أدبر، وقيل: أقبل.

﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي: بانت[٦] علائم الصبح، وانشق النور شيئًا فشيئًا حتى يستكمل وتطلع الشمس.

وهٰذه آيات عظام أقسم الله بها على علو سند القرآن[٧] وجلالته وحفظه من كل شيطان رجيم فقال:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وهو جبريل عليه السلام، نزل به من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾.

ووصفه الله بالكريم لكرم أخلاقه، وكثرة خصاله الحميدة، فإنه أفضل الملائكة وأعظمهم رتبة عند ربه.

﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ على ما أمره الله به.

ومن قوته أنه قلب ديار قوم لوط بهم فأهلكهم.

---

(١) في ب: وتناثرت. (٢) في ب: حتى إنه يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء. (٣) في ب: ولكن هذا فيه توبيخ وتقريع لقاتليها. (٤) في ب: مع سائر الكواكب والفلك. (٥) في ب: الكواكب. (٦) في ب: بدت. (٧) في ب: أقسم الله عليها لقوة سند القرآن.

سُورَةُ التَّكْوِيرِ (ترتيبها ٨١ — آياتها ٢٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾

سُورَةُ الانفِطَارِ (ترتيبها ٨٢ — آياتها ١٩)

﴿عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ﴾ أي: جبريل مقرب عند الله، له منزلة رفيعة وخصيصة من الله اختصه بها.

﴿مَكِينٍ﴾ أي: له مكانة ومنزلة فوق منازل الملائكة كلهم.

﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي: جبريل مطاع في الملأ الأعلى، لديه[1] من الملائكة المقربين جنود، نافذ فيهم أمره، مطاع رأيه.

﴿أَمِينٍ﴾ أي: ذو أمانة وقيام بما أمر به، لا يزيد ولا ينقص ولا يتعدى ما حُدَّ له، وهٰذا [كله] يدل على شرف القرآن عند الله تعالى، فإنه بعث به هٰذا الملك الكريم الموصوف بتلك الصفات الكاملة.

والعادة أن الملوك لا ترسل الكريم عليها إلا في أهم المهمات وأشرف الرسائل.

ولما ذكر فضل الرسول الملكي الذي جاء بالقرآن، ذكر فضل الرسول البشري الذي نزل عليه القرآن ودعا إليه الناس فقال:

﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ وهو محمد ﷺ ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ كما يقوله أعداؤه المكذبون برسالته، المتقولون عليه من الأقوال التي يريدون أن يُطفئوا بها ما جاء به ما شاءوا وقدروا عليه.

بل هو أكمل الناس عقلًا، وأجزلهم رأيًا، وأصدقهم لهجة.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام بالأفق البيِّن، الذي هو أعلى ما يلوح للبصر.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ أي: وما هو على ما أوحاه الله إليه بمتهم يزيد فيه أو ينقص أو يكتم بعضه، بل هو ﷺ أمين أهل السماء وأهل الأرض، الذي بلغ رسالات ربه البلاغ المبين، فلم يشح بشيء منه عن غنيٍّ ولا فقير، ولا رئيس ولا مرءوس، ولا ذكر ولا أنثى، ولا حضريٍّ ولا بدويٍّ، ولذٰلك بعثه الله في أمة أمية جاهلة جهلاء، فلم يمت ﷺ حتى كانوا علماء ربانيين، وأحبارًا متفرسين، إليهم الغاية في العلوم، وإليهم المنتهى في استخراج الدقائق والفهوم، وهم الأساتذة وغيرهم قصاراه أن يكون من تلاميذهم.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ لما ذكر جلالة كتابه[2] وفضله بذكر الرسولين الكريمين، اللذين وصل إلى الناس على أيديهما، وأثنى الله عليهما بما أثنى، دفع عنه كل آفة ونقص مما يقدح في صدقه فقال:

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ أي: في غاية البعد عن الله وعن قربه.

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أي: كيف يخطر هٰذا ببالكم، وأين عزبت عنكم أذهانكم؟ حتى جعلتم الحق الذي هو في أعلى درجات الصدق بمنزلة الكذب، الذي هو أنزل ما يكون، [وأرذل] وأسفل الباطل؟!

هل هٰذا إلا من انقلاب الحقائق.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يتذكرون به ربهم، وما له من صفات الكمال، وما ينزه عنه من النقائص والرذائل [والأمثال] ويتذكرون به الأوامر والنواهي وحكمها، ويتذكرون به الأحكام القدرية والشرعية والجزائية، وبالجملة يتذكرون به مصالح الدارين، وينالون بالعمل به السعادتين.

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ بعدما تبين الرشد من الغي والهدى من الضلال.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: فمشيئته نافذة لا يمكن أن تعارض أو تمانع.

وفي هٰذه الآية وأمثالها رَدٌّ على فِرْقتي القدرية النفاة والقدرية المجبرة كما تقدم مثلها [والله أعلم والحمد لله].

---

(١) في ب: لأنه. (٢) كذا في ب، وفي أ: جلالته.

تفسير سورة الانفطار

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١-٥) ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ○ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ○ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ○ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ○ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ أي: إذا انشقت السماء وانفطرت وانتثرت[١] نجومها، وزال جمالها، وفجرت البحار فصارت بحرًا واحدًا، وبعثرت القبور بأن أخرجت[٢] ما فيها من الأموات، وحشروا للموقف بين يدي الله للجزاء على الأعمال.

فحينئذ ينكشف الغطاء، ويزول ما كان خفيًّا، وتعلم كل نفس ما معها من الأرباح والخسران.

هنالك يعض الظالم على يديه إذا رأى أعماله باطلة، وميزانه قد خف والمظالم قد تداعت إليه، والسيئات قد حضرت لديه، وأيقن بالشقاء الأبدي والعذاب السرمدي[٣].

و[هنالك] يفوز المتقون - المقدمون لصالح الأعمال - بالفوز العظيم، والنعيم المقيم، والسلامة من عذاب الجحيم.

(٦-١٢) ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ○ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ○ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ○ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ○ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ○ كِرَامًا كَاتِبِينَ ○ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ يقول تعالى معاتبًا للإنسان المقصر في حق ربه، المتجرىء على مساخطه[٤]: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ أتهاونًا منك في حقوقه؟ أم احتقارًا منك لعذابه؟ أم عدم إيمان منك بجزائه؟.

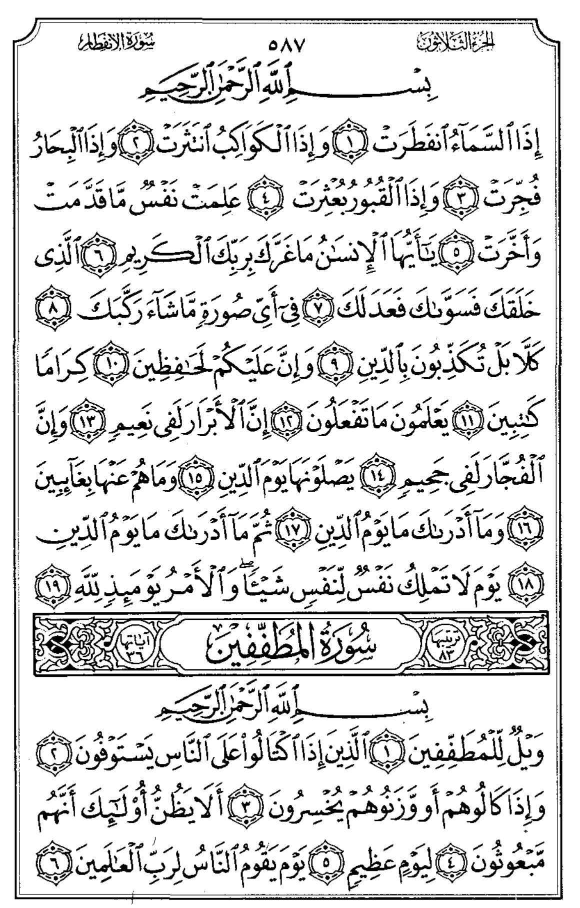
أليس هو ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ﴾ في أحسن تقويم؟.

﴿فَعَدَلَكَ﴾ وركبك تركيبًا قويمًا معتدلًا في أحسن الأشكال وأجمل الهيئات.

فهل يليق بك أن تكفر نعمة المنعم، أو تجحد إحسان المحسن؟.

إن هٰذا إلا من جهلك وظلمك وعنادك وغشمك، فاحمد الله أن لم يجعل صورتك صورة كلب أو حمار أو نحوهما من الحيوانات.

[فلهذا قال تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ وقوله:] ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ أي: مع هٰذا الوعظ والتذكير لا تزالون مستمرين على التكذيب بالجزاء.



الجزء الثلاثون ٥٨٧ سورة الانفطار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ — ترتيبها ٨٣ — آياتها ٣٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾

وأنتم لا بد أن تحاسبوا على ما عملتم، وقد أقام الله عليكم ملائكة كرامًا يكتبون أقوالكم وأفعالكم يعلمون أفعالكم، ودخل في هٰذا أفعال القلوب وأفعال الجوارح، فاللائق بكم أن تكرموهم وتجلوهم وتحترموهم.

(١٣-١٩) ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ○ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ○ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ○ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ○ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ○ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ○ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ المراد بالأبرار القائمون بحقوق الله وحقوق عباده، الملازمون للبر في أعمال القلوب وأعمال الجوارح، فهٰؤلاء جزاؤهم النعيم في القلب والروح والبدن في دار الدنيا [وفي دار] البرزخ و[في] دار القرار.

﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ﴾ الذين قصروا في حقوق الله وحقوق عباده الذين فجرت قلوبهم ففجرت أعمالهم ﴿لَفِي جَحِيمٍ﴾ أي: عذاب أليم في دار الدنيا، و[دار] البرزخ وفي دار القرار.

---

(١) في ب: وتناثرت. (٢) في ب: بأن أخرج. (٣) في ب: إذا رأى ما قدمت يداه وأيقن بالشقاء الأبدي والعذاب السرمدي. (٤) في ب: المقصر في حقه المتجرىء على معاصيه.

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ ويعذبون [بها] أشد العذاب ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي: يوم الجزاء على الأعمال.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾، أي: بل هم ملازمون لها لا يخرجون منها.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ ففي هٰذا تهويل لذٰلك اليوم الشديد الذي يحير الأذهان.

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ ولو كانت لها قريبة [أو حبيبة] مصافية فكل مشتغل بنفسه لا يطلب الفكاك لغيرها.

﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ فهو الذي يفصل بين العباد ويأخذ للمظلوم حقه من ظالمه [والله أعلم].

تفسير سورة المطففين

وهي مكية(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١-٦) ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ﴿وَيْلٌ﴾ كلمة عذاب ووعيد(٢) ﴿لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ وفسر الله المطففين بقوله(٣) ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ أي: أخذوا منهم وفاءً عما ثبت لهم قِبَلهم يستوفونه كاملًا من غير نقص.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾ أي: إذا أعطوا الناس حقهم الذي للناس(٤) عليهم بكيل أو وزن ﴿يُخْسِرُونَ﴾ أي: ينقصونهم ذٰلك، إما بمكيال وميزان ناقصين، أو بعدم ملء المكيال والميزان أو نحو ذٰلك، فهٰذا سرقة [لأموال] الناس(٥) وعدم إنصاف [لهم] منهم.

وإذا كان هٰذا الوعيد(٦) على الذين يبخسون الناس بالمكيال والميزان، فالذي يأخذ أموالهم قهرًا أو سرقة، أولى بهٰذا الوعيد من المطففين.

ودلت الآية الكريمة على أن الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له، يجب عليه أن يعطيهم كل ما لهم من الأموال والمعاملات.

بل يدخل في [عموم هٰذا](٧) الحجج والمقالات، فإنه كما أن المتناظرين قد جرت العادة أن كل واحد [منهما] يحرص على ما له من الحجج، فيجب عليه أيضًا أن يبين ما لخصمه من الحجج(٨) [التي لا يعلمها]، وأن ينظر في أدلة خصمه كما ينظر في أدلته هو، وفي هٰذا الموضع يعرف إنصاف الإنسان من تعصبه واعتسافه، وتواضعه من كبره، وعقله من سفهه، نسأل الله التوفيق لكل خير.

ثم توعد تعالى المطففين وتعجب من حالهم وإقامتهم على ما هم عليه فقال:

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فالذي جرأهم على التطفيف عدم إيمانهم باليوم الآخر، وإلا فلو آمنوا به، وعرفوا أنهم يقومون بين يدي الله، يحاسبهم(٩) على القليل والكثير، لأقلعوا عن ذٰلك وتابوا منه.

(٧-١٧) ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۝ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ۝ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ﴾ [وهٰذا شامل لكل فاجر] من أنواع الكفرة والمنافقين والفاسقين ﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ ثم فسّر ذٰلك بقوله:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۝ كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ أي: كتاب مذكور فيه أعمالهم الخبيثة، والسجّين: المحل الضيق الضنك، و «سجين» ضد «عليين» الذي هو محل كتاب الأبرار كما سيأتي.

وقد قيل: إن «سجين» هو أسفل الأرض السابعة مأوى الفجار، ومستقرهم في معادهم.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ثم بين المكذبين بأنهم(١٠) ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: يوم الجزاء يوم يدين الله فيه الناس بأعمالهم.

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ على محارم الله، متعد من الحلال إلى الحرام.

﴿أَثِيمٍ﴾ أي: كثير الإثم، فهٰذا الذي يحمله عدوانه على التكذيب، ويحمله [عدوانه على التكذيب ويوجب له] كبره رد الحق ولهٰذا:

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ الدالة على الحق و[على] صدق ما جاءت به رسله، كذبها وعاندها و ﴿قَالَ﴾: هٰذا ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: من ترهات المتقدمين وأخبار الأمم الغابرين ليس من عند الله، تكبُّرًا وعنادًا.

---

(١) في ب: وهي مدنية. (٢) في ب: وعقاب. (٣) في ب: بأنهم.
(٤) في ب: لهم. (٥) كذا في ب، وفي أ: سرقة للناس. (٦) في ب: وعيدًا. (٧) في ب: يدخل في ذلك. (٨) في ب: الحجة. (٩) في ب: أنهم سيقومون بين يدي الله فيحاسبهم. (١٠) في ب: ثم بينهم بقوله.

وأما من أنصف، وكان مقصوده الحق المبين، فإنه لا يكذب بيوم الدين، لأن الله قد أقام عليه من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة ما يجعله حق اليقين، وصار لقلوبهم مثل الشمس للأبصار[1]، بخلاف من ران على قلبه كسبه، وغطته معاصيه فإنه محجوب عن الحق.

ولهٰذا جوزي على ذٰلك بأن حُجب عن الله، كما حجب قلبه في الدنيا عن آيات الله.

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ﴾ مع هٰذه العقوبة البليغة ﴿لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾.

ثم يقال لهم توبيخًا وتقريعًا: ﴿هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

فذكر لهم ثلاثة أنواع من العذاب: عذاب الجحيم وعذاب التوبيخ واللوم، وعذاب الحجاب من رب العالمين، المتضمن لسخطه وغضبه عليهم، وهو أعظم عليهم من عذاب النار.

ودل مفهوم الآية على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وفي الجنة، ويتلذذون بالنظر إليه أعظم من سائر اللذات، ويبتهجون بخطابه ويفرحون بقربه، كما ذكر الله ذٰلك في عدة آيات من القرآن، وتواتر فيه النقل عن رسول الله.

وفي هٰذه الآيات التحذير من الذنوب، فإنها ترين على القلب وتغطيه شيئًا فشيئًا، حتى ينطمس نوره، وتموت بصيرته، فتنقلب عليه الحقائق، فيرى الباطل حقًّا، والحق باطلًا، وهٰذا من بعض[2] عقوبات الذنوب.

(١٨-٢٧) ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ○ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ○ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ○ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ○ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ○ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ○ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ○ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ○ خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ○ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ﴾ لما ذكر أن كتاب الفجار في أسفل الأمكنة وأضيقها، ذكر أن كتاب الأبرار في أعلاها وأوسعها وأفسحها.

وأن كتابهم المرقوم ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ من الملائكة الكرام وأرواح الأنبياء والصديقين والشهداء، ويُنوِّه الله بذكرهم في الملأ الأعلى.

و «عليون» اسم لأعلى الجنة.

فلما ذكر كتابهم ذكر أنهم في نعيم، وهو اسم جامع لنعيم القلب والروح والبدن.

﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ أي: [على] السرر المزينة بالفرش الحسان.

﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى ما أعد الله لهم من النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم.

﴿تَعْرِفُ﴾ أيها الناظر إليهم ﴿فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ أي: بهاء النعيم[3] ونضارته ورونقه.

الجزء الثلاثون ٥٨٨ سورة المطففين

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾

فإن توالي اللذة والسرور[4] يكسب الوجه نورًا وحسنًا وبهجة.

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾ وهو من أطيب ما يكون من الأشربة وألذها.

﴿مَّخْتُومٍ﴾ ذٰلك الشراب ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾.

يحتمل أن المراد مختوم عن أن يداخله شيء ينقص لذته، أو يفسد طعمه، وذٰلك الختام الذي ختم به مسك، ويحتمل أن المراد أنه [الذي] يكون في آخر الإناء الذي يشربون منه الرحيق حثالة، وهي المسك الأذفر.

فهٰذا الكدر منه الذي جرت العادة في الدنيا أنه يراق، يكون في الجنة بهٰذه المثابة.

﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ النعيم المقيم الذي لا يعلم مقداره وحسنه إلا الله.

﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ أي: يتسابقوا في المبادرة إليه

---

(١) في ب: وصار لبصائرهم بمنزلة الشمس للأبصار. (٢) في ب: من أعظم. (٣) في ب: أي: بهاءه. (٤) في ب: فإن توالي اللذات والمسرات والأفراح.

والأعمال الموصلة إليه، فهٰذا أولى ما بذلت فيه نفائس الأنفاس، وأحرى ما تزاحمت للوصول إليه فحول الرجال.

(٢٨) ومزاج هٰذا الشراب من تسنيم وهي عين ﴿يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ صِرْفًا وهي أعلى أشربة الجنة على الإطلاق، فلذٰلك كانت خالصة للمقربين الذين هم أعلى الخلق منزلة، وممزوجة لأصحاب اليمين أي: مخلوطة بالرحيق وغيره من الأشربة اللذيذة.

(٢٩-٣٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ○ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ○ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ○ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ○ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ○ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ○ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ○ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ لما ذكر تعالى جزاء المجرمين وجزاء المؤمنين[١]، و[ذكر] ما بينهما من التفاوت العظيم، أخبر أن المجرمين كانوا في الدنيا يسخرون بالمؤمنين، ويستهزئون بهم ويضحكون منهم ويتغامزون بهم عند مرورهم عليهم، احتقارًا لهم وازدراء، ومع هٰذا تراهم مطمئنين لا يخطر الخوف على بالهم.

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ﴾ صباحًا أو مساء ﴿ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾ أي: مسرورين مغتبطين[٢].

وهٰذا من أعظم[٣] ما يكون من الاغترار، أنهم جمعوا بين غاية الإساءة والأمن[٤] في الدنيا، حتى كأنهم قد جاءهم كتاب من الله وعهد، أنهم من أهل السعادة، وقد حكموا لأنفسهم أنهم أهل الهدى وأن المؤمنين ضالون، افتراء على الله، وتجرؤًا على القول عليه بلا علم.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ أي: وما أرسلوا وكلاء على المؤمنين ملزمين بحفظ أعمالهم، حتى يحرصوا على رميهم بالضلال، وما هٰذا منهم إلا تعنت وعناد وتلاعب، ليس له مستند ولا برهان، ولهٰذا كان جزاؤهم في الآخرة من جنس عملهم.

قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ حين يرونهم في غمرات العذاب يتقلبون، وقد ذهب عنهم ما كانوا يفترون.

والمؤمنون في غاية الراحة والطمأنينة ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ وهي السرر المزينة.

﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى ما أعد الله لهم من النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم.

﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أي: هل جوزوا من جنس عملهم؟.

فكما ضحكوا في الدنيا من المؤمنين ورموهم بالضلال، ضحك المؤمنون منهم في الآخرة، ورأوهم[٥] في العذاب والنكال الذي هو عقوبة الغي والضلال.

نعَم، ثوبوا ما كانوا يفعلون، عدلًا من الله وحكمة، والله عليم حكيم.

تفسير سورة الانشقاق

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١-١٥) ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ○ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ○ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ○ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ○ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ○ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ○ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ○ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ○ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ○ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ○ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ○ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ○ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ○ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ○ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ يقول تعالى مبينًا لما يكون في يوم القيامة من تغير الأجرام العظام: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ أي: انفطرت وتمايز بعضها من بعض، وانتثرت نجومها وخسف بشمسها وقمرها.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي: استمعت لأمره وألقت سمعها وأصاخت لخطابه.

وحق لها ذٰلك، فإنها مسخرة مدبرة تحت مسخِّرٍ ملكٍ عظيم لا يعصى أمره ولا يخالف حكمه.

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أي: رجفت وارتجت، ونسفت عليها جبالها، ودك ما عليها من بناء ومَعْلم فسويت، ومدها الله تعالى مد الأديم حتى صارت واسعة جدًا، تسع أهل الموقف على كثرتهم، فتصير قاعًا صفصفًا، لا ترى فيها عوجًا ولا أمتا.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ من الأموات والكنوز.

﴿وَتَخَلَّتْ﴾ منهم، فإنه ينفخ في الصور فتخرج الأموات من الأجداث إلى وجه الأرض، وتخرج الأرض كنوزها حتى تكون كالأسطوان العظيم، يشاهده الخلق ويتحسرون على ما هم فيه يتنافسون.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ○ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ أي: إنك ساع إلى الله وعامل بأوامره ونواهيه،

---

(١) في ب: المحسنين. (٢) كذا في ب، وفي أ: مغبوطين. (٣) في ب: وهذا أشد. (٤) في ب: مع الأمن. (٥) في ب: حين رأوهم.

ومتقرب إليه إما بالخير وإما بالشر، ثم تُلاقي الله يوم القيامة فلا تعدم منه جزاء، بالفضل إن كنت سعيدًا؛ أو بالعدل إن كنت شقيًّا[1].

ولهٰذا ذكر تفصيل الجزاء فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ وهم أهل السعادة.

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ وهو العرض اليسير على الله، فيقرره الله بذنوبه حتى إذا ظن العبد أنه قد هلك، قال الله [تعالى] له: «إني قد سترتها عليك في الدنيا، فأنا أسترها لك اليوم».

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ في الجنة ﴿مَسْرُورًا﴾ لأنه نجا من العذاب وفاز بالثواب.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ أي: بشماله من خلفه[2].

﴿فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا﴾ من الخزي والفضيحة وما يجد في كتابه من الأعمال التي قدمها ولم يتب منها.

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ أي: تحيط به السعير من كل جانب ويقلب على عذابها، وذٰلك لأنه في الدنيا ﴿كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ لا يخطر البعث على باله وقد أساء، ولم[3] يظن أنه راجع إلى ربه وموقوف بين يديه.

﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ فلا يحسن أن يتركه سدى لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب.

(١٦-٢٥) ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ○ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ○ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ○ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ○ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ○ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ○ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ○ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ○ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ○ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أقسم في هٰذا الموضع بآيات الليل، فأقسم بالشفق الذي هو بقية نور الشمس الذي هو مفتتح الليل.

﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي: احتوى عليه من حيوانات وغيرها.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ أي: امتلأ نورًا بإبداره، وذٰلك أحسن ما يكون وأكثر منافع، والمقسم عليه قوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ [أي:] أيها الناس ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ أي: أطوارًا متعددة وأحوالًا متباينة، من النطفة إلى العلقة، إلى المضغة، إلى نفخ الروح.

ثم يكون وليدًا وطفلًا ثم مميزًا، ثم يجري عليه قلم التكليف والأمر والنهي، ثم يموت بعد ذٰلك، ثم يبعث ويجازى بأعماله.

فهٰذه الطبقات المختلفة الجارية على العبد دالة على أن الله وحده هو المعبود، الموحد، المدبر لعباده، بحكمته ورحمته، وأن العبد فقير، عاجز، تحت تدبير العزيز الرحيم.

ومع هٰذا، فكثير من الناس لا يؤمنون ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ أي: لا يخضعون للقرآن ولا ينقادون

الجزء الثلاثون ٥٨٩ سورة الانشقاق

عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

سُورَةُ ٱلانشِقَاقِ — ترتيبها ٨٤ — آياتها ٢٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾

لأوامره ونواهيه.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ أي: يعاندون الحق بعد ما تبين، فلا يستغرب عدم إيمانهم وعدم انقيادهم للقرآن، فإن المكذب بالحق عنادًا لا حيلة فيه.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أي: بما يعملونه وينوونه سرًّا، فالله يعلم سرهم وجهرهم وسيجازيهم بأعمالهم ولهٰذا قال:

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وسميت البشارة بشارة لأنها تؤثر في البشرة سرورًا أو غمًّا.

فهٰذه حال أكثر الناس، التكذيب بالقرآن وعدم الإيمان [به].

ومن الناس فريق هداهم الله فآمنوا بالله وقبلوا ما جاءتهم به الرسل، فآمنوا وعملوا الصالحات.

فهٰؤلاء ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع، بل هو أجر دائم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

تم تفسير السورة، ولله الحمد.

---

(١) في ب: جزاء بالفضل أو العدل بالفضل إن كنت سعيدًا، وبالعقوبة إن كنت شقيًّا. (٢) في ب: من وراء ظهره. (٣) في ب: ولا.

تفسير سورة البروج

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١-٢٢) ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ○ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ○ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ○ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ○ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ○ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ○ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ○ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ○ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ○ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ○ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ○ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ○ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ○ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ○ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ○ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ○ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ○ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ○ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ○ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ ○ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ○ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾. ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ أي: [ذات] المنازل المشتملة على منازل الشمس والقمر، والكواكب المنتظمة في سيرها على أكمل ترتيب ونظام دال على كمال قدرة الله تعالى ورحمته وسعة علمه وحكمته.

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾ وهو يوم القيامة الذي وعد الله الخلق أن يجمعهم فيه، ويضم فيه أولهم وآخرهم وقاصيهم ودانيهم، الذي لا يمكن أن يتغير ولا يخلف الله الميعاد.

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ وشمل هٰذا كل من اتصف بهٰذا الوصف، أي مُبْصِر ومُبْصَر وحاضر ومحضور، وراءٍ ومَرْئيّ.

والمقسم عليه ما تضمنه هٰذا القسم، من آيات الله الباهرة وحِكَمه الظاهرة ورحمته الواسعة.

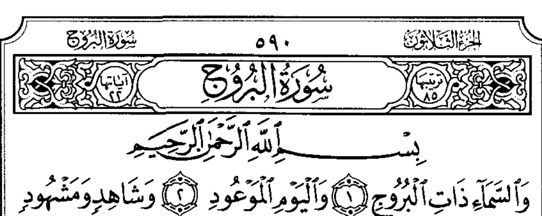
وقيل: إن المقسم عليه قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ وهٰذا دعاء عليهم بالهلاك.

و «الأخدود»: الحفر التي تحفر في الأرض.

وكان أصحاب الأخدود هٰؤلاء قومًا كافرين، ولديهم قوم مؤمنون، فراودوهم للدخول(١) في دينهم، فامتنع المؤمنون من ذٰلك، فشقّ الكافرون أخدودًا [في الأرض]، وقذفوا فيها النار، وقعدوا حولها، وفتنوا المؤمنين، وعرضوهم عليها.

فمن استجاب لهم أطلقوه، ومن استمر على الإيمان قذفوه في النار، وهٰذا في غاية المحاربة لله ولحزبه المؤمنين، ولهٰذا لعنهم الله وأهلكهم وتوعدهم فقال: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾.

ثم فسر الأخدود بقوله: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ○ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا



وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ① وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ② وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ③ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ④ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ⑤ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ⑥ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ⑦ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ⑧ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ⑨ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ⑩ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ⑪ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ⑫ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ⑬ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ⑭ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ⑮ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ⑯ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ⑰ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ⑱ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ⑲ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ⑳ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ㉑ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ㉒

سُورَةُ الطَّارِقِ

قُعُودٌ ○ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾.

وهٰذا من أعظم ما يكون من التجبر وقساوة القلب، لأنهم جمعوا بين الكفر بآيات الله ومعاندتها، ومحاربة أهلها وتعذيبهم بهٰذا العذاب الذي تنفطر منه القلوب.

وحضورهم إياهم عند إلقائهم فيها، والحال أنهم ما نقموا من المؤمنين إلا خصلة(٢) يمدحون عليها، وبها سعادتهم، وهي أنهم كانوا يؤمنون بالله العزيز الحميد أي: الذي له العزة التي قهر بها كل شيء، وهو حميد في أقواله وأوصافه وأفعاله.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خلقًا وعبيدًا يتصرف فيهم تصرف المالك بملكه(٣).

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ علمًا وسمعًا وبصرًا.

أفلا خاف هٰؤلاء المتمردون على الله أن يبطش بهم العزيز المقتدر، أو ما علموا أنهم جميعهم مماليك لله(٤)، ليس لأحد

---

(١) في ب: على الدخول. (٢) في ب: حالة. (٣) في ب: يتصرف فيهم بما يشاء. (٤) في ب: أفلا خاف هؤلاء المتمردون عليه أن يأخذهم العزيز المقتدر، أو ما علموا كلهم أنهم مماليك لله.

على أحد سلطة من دون إذن المالك؟.

أو خفي عليهم أن الله محيط بأعمالهم مجازٍ لهم على فعالهم[(١)]؟.

كلا إن الكافر في غرور، والظالم في جهل وعمى[(٢)] عن سواء السبيل.

ثم وعدهم وأوعدهم وعرض عليهم التوبة فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي: العذاب الشديد المحرق.

قال الحسن رحمه الله: انظروا إلى هٰذا الكرم والجود، هم قتلوا أولياءه وأهل طاعته وهو يدعوهم إلى التوبة.

ولما ذكر عقوبة الظالمين ذكر ثواب المؤمنين فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بقلوبهم ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بجوارحهم ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي حصل به الفوز[(٣)] برضا الله ودار كرامته.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أي: إن عقوبته لأهل الجرائم والذنوب العظام، [لقوية] شديدة وهو بالمرصاد للظالمين.

كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أي: هو المنفرد بإبداء الخلق وإعادته، فلا مشارك له في ذٰلك[(٤)].

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ الذي يغفر الذنوب جميعها لمن تاب، ويعفو عن السيئات لمن استغفره وأناب.

﴿ٱلْوَدُودُ﴾ الذي يحبه أحبابه محبة لا يشبهها شيء.

فكما أنه لا يشابهه شيء في صفات الجلال والجمال والمعاني والأفعال، فمحبته في قلوب خواص خلقه التابعة لذٰلك، لا يشبهها شيء من أنواع المحاب.

ولهٰذا كانت محبته أصل العبودية، وهي المحبة التي تتقدم جميع المحاب وتغلبها، وإن لم يكن غيرها تبعًا لها كانت عذابًا على أهلها.

وهو تعالى الودود الوَادُّ لأحبابه كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ والمودة هي المحبة الصافية.

وفي هٰذا سر لطيف حيث قرن «الودود» بالغفور، ليدل ذٰلك على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله وأنابوا، غفر لهم ذنوبهم وأحبهم، فلا يقال: بل تغفر ذنوبهم، ولا يرجع إليهم الود، كما قاله بعض الغالطين.

بل الله أفرح بتوبة عبده حين يتوب، من رجل له راحلة، عليها طعامه وشرابه وما يصلحه، فأضلها في أرض فلاة مهلكة، فأيس منها فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت.

فبينما هو على تلك الحال، إذا راحلته على رأسه فأخذ بخطامها، فالله أعظم فرحًا بتوبة العبد من هٰذا براحلته، وهٰذا أعظم فرح يقدر.

فللَّه الحمد والثناء وصفو الوداد، ما أعظم بره وأكثر خيره وأغزر إحسانه وأوسع امتنانه!!

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾، أي: صاحب العرش العظيم الذي من عظمته، أنه وسع السماوات والأرض والكرسي.

فهي بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة في فلاة بالنسبة لسائر الأرض، وخص الله العرش بالذكر لعظمته، ولأنه أخص المخلوقات بالقرب منه تعالى، وهٰذا على قراءة الجر يكون «المجيد» نعتًا للعرش.

وأما على قراءة الرفع فإن المجيد نعت لله[(٥)]، والمجد سعة الأوصاف وعظمتها.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي: مهما أراد شيئًا فعله، إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون، وليس أحد فعالًا لما يريد إلا الله.

فإن المخلوقات ولو أرادت شيئًا، فإنه لا بد لإرادتها من معاون وممانع، والله لا معاون لإرادته، ولا ممانع له مما أراد.

ثم ذكر من أفعاله الدالة على صدق ما جاءت به رسله فقال:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ○ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ وكيف كذبوا المرسلين، فجعلهم الله من المهلكين.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكْذِيبٍ﴾ أي: لا يزالون مستمرين على التكذيب والعناد لا تنفع فيهم الآيات، ولا تُجْدِي لديهم العظات.

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ﴾ أي: قد أحاط بهم علمًا وقدرة، كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾.

ففيه الوعيد الشديد للكافرين من عقوبة من هم في قبضته وتحت تدبيره.

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ أي: وسيع المعاني عظيمها، كثير الخير والعلم.

﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ من التغيير والزيادة والنقص ومحفوظ من الشياطين، وهو اللوح المحفوظ الذي قد أثبت الله فيه كل شيء.

وهٰذا يدل على جلالة القرآن وجزالته، ورفعة قدره عند الله تعالى، والله أعلم.

تم تفسير السورة.

---

(١) في ب: مجازيهم عليها. (٢) في ب: والجاهل في عمى وضلال.
(٣) في ب: حصل لهم الفوز. (٤) في ب: فلا يشاركه في ذلك مشارك. (٥) في ب: فإنه يكون نعتًا لله.

تفسير سورة الطارق

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١-١٧) ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ○ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ○ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ○ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ○ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ○ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ○ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ○ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ○ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ○ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ○ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ○ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ○ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ○ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ○ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ○ وَأَكِيدُ كَيْدًا ○ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ يقول [الله] تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾.

ثم فسر الطارق بقوله ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ أي: المضيء الذي يثقب نوره، فيخرق السماوات [فينفذ حتى يُرى في الأرض] والصحيح أنه اسم جنس يشمل سائر النجوم الثواقب.

وقد قيل: إنه «زحل» الذي يخرق السماوات السبع وينفذ فيها[1]، فيرى منها.

وسمي طارقًا لأنه يطرق ليلًا.

والمقسم عليه قوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ يحفظ عليها أعمالها الصالحة والسيئة، وستجازى بعملها المحفوظ عليها.

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ أي: فليتدبر خلقته ومبدأه فإنه مخلوق ﴿مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ وهو المني الذي ﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ يحتمل أنه من بين صلب الرجل وترائب المرأة وهي ثدياها، ويحتمل أن المراد: المني الدافق، وهو مني الرجل، وأن محله الذي يخرج منه ما بين صلبه وترائبه، ولعل هٰذا أولى، فإنه إنما وصف الله به الماء الدافق، والذي يحس [به] ويشاهد دفقه هو مني الرجل، وكذلك لفظ الترائب فإنها تستعمل في الرجل، فإن الترائب للرجل بمنزلة الثديين للأنثى، فلو أريدت الأنثى لقال: «من بين الصلب والثديين» ونحو ذٰلك، والله أعلم.

فالذي أوجد الإنسان من ماء دافق يخرج من هٰذا الموضع الصعب، قادر على رجعه في الآخرة، وإعادته للبعث والنشور [والجزاء].

وقد قيل: إن معناه أن الله على رجع الماء المدفوق في الصلب لقادر، وهٰذا - وإن كان المعنى صحيحًا - فليس هو المراد من الآية، ولهٰذا قال بعده:

﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ أي: تختبر سرائر الصدور، ويظهر ما كان

الجزء الثلاثون ٥٩١ سورة الطارق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾

سُورَةُ الأَعْلَىٰ — ترتيبها ٨٧ — آياتها ١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾

في القلوب من خير وشر على صفحات الوجوه قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾.

ففي الدنيا تنكتم كثير من الأمور، ولا تظهر عيانًا للناس، وأما في القيامة فيظهر بِرُّ الأبرار وفجور الفجار وتصير الأمور علانية.

﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ﴾ يدفع بها عن نفسه[2] ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ خارجي[3] ينتصر به، فهٰذا القَسَمُ على حالة العاملين وقت عملهم وعند جزائهم.

ثم أقسم قسمًا ثانيًا على صحة القرآن فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ○ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ أي: ترجع السماء بالمطر كل عام، وتنصدع الأرض للنبات، فيعيش بذٰلك الآدميون والبهائم، وترجع السماء أيضًا بالأقدار والشئون الإلٰهية كل وقت، وتنصدع الأرض عن الأموات.

﴿إِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ أي: حق وصدق بيِّنٌ واضح.

(١) في ب: وينفذها. (٢) في ب: أي: من نفسه يدفع بها. (٣) في ب: من خارج.

﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ أي: جد ليس بالهزل، وهو القول الذي يفصل بين الطوائف والمقالات، وتنفصل به الخصومات.

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: المكذبين للرسول ﷺ وللقرآن ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ ليدفعوا بكيدهم الحق ويؤيدوا الباطل.

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ لإظهار الحق، ولو كره الكافرون؛ ولدفع ما جاءوا به من الباطل؛ ويعلم بهذا مَن الغالب، فإن الآدمي أضعف وأحقر من أنَ يغالب القوي العليم في كيده.

﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ أي: قليلًا، فسيعلمون عاقبة أمرهم حين ينزل بهم العقاب.

تم تفسير سورة الطارق، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة سبح

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٩) ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ○ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ○ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ○ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ○ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ○ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى ○ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ○ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ○ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ○ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى ○ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ○ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ○ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ○ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ○ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ○ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ○ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ○ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ○ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ يأمر تعالى بتسبيحه المتضمن لذكره وعبادته، والخضوع لجلاله، والاستكانة لعظمته، وأن يكون تسبيحًا يليق بعظمة الله تعالى، بأن تذكر أسماؤه الحسنى العالية على كل اسم بمعناها الحسن العظيم[١]. وتذكر أفعاله التي منها: أنه خلق المخلوقات فسواها أي: أتقنها وأحسن خلقها.

﴿وَالَّذِي قَدَّرَ﴾ تقديرًا تتبعه جميع المقدرات ﴿فَهَدَى﴾ إلى ذلك جميع المخلوقات.

وهذه الهداية العامة التي مضمونها أنه هدى كل مخلوق لمصلحته، وتذكر فيها نعمه الدنيوية، ولهذا قال فيها:

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ أي: أنزل من السماء ماء، فأنبت به أنواع[٢] النبات والعشب الكثير، فرتع فيها الناس والبهائم، وكل حيوان[٣].

ثم بعد أن استكمل ما قدر له من الشباب، ألوى نباته وصَوَّح عشبه.

﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ أي: أسود أي: جعله هشيمًا رميمًا، ويذكر فيها نعمه الدينية.

ولهذا امتنَّ الله بأصلها ومنشأها[٤]، وهو القرآن فقال:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى﴾ أي: سنحفظ ما أوحينا إليك من الكتاب ونوعيه قلبك فلا تنسى منه شيئًا.

وهذه بشارة كبيرة من الله لعبده ورسوله محمد ﷺ، أن الله سيعلِّمه علمًا لا ينساه.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ مما اقتضت حكمته أن ينسيكه لمصلحة بالغة.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ ومن ذلك أنه يعلم ما يصلح عباده أي: فلذلك يشرع ما أراد، ويحكم بما يريد[٥].

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ وهذه أيضًا بشارة كبيرة[٦]، أن الله ييسر رسوله ﷺ لليسرى في جميع أموره، ويجعل شرعه ودينه يسرًا[٧].

﴿فَذَكِّرْ﴾ بشرع الله وآياته ﴿إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ أي: ما دامت الذكرى مقبولة، والموعظة مسموعة، سواء حصل من الذكرى جميع المقصود أو بعضه. ومفهوم الآية أنه إن لم تنفع الذكرى، بأن كان التذكير يزيد في الشر أو ينقص من الخير لم تكن الذكرى مأمورًا بها، بل منهيًّا عنها.

فالذكرى ينقسم الناس فيها قسمين: منتفعون وغير منتفعين.

فأما المنتفعون فقد ذكرهم بقوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى﴾ الله تعالى فإن خشية الله تعالى وعلمه بأن سيجازيه على أعماله[٨] توجب للعبد الانكفاف عن المعاصي[٩]، والسعي في الخيرات.

وأما غير المنتفعين فذكَّرهم بقوله: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ○ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ وهي النار الموقدة التي تطلع على الأفئدة.

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ أي: يعذب عذابًا أليمًا من غير راحة ولا استراحة، حتى إنهم يتمنون الموت فلا يحصل لهم، كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ أي: قد فاز وربح من طهر نفسه ونقَّاها من الشرك والظلم ومساوىء الأخلاق.

﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ أي: اتصف بذكر الله وانصبغ به

(١) في ب: بمعناها العظيم الجليل. (٢) في ب: أصناف. (٣) في ب: وجميع الحيوانات. (٤) في ب: ومادتها. (٥) كذا في ب، وفي أ: يحكم بما أراد، ويحكم بما يريد. (٦) في ب: أخرى. (٧) كذا في ب، وفي أ: يسيرًا. (٨) في ب: والعلم بمجازاته على الأعمال. (٩) في ب: الانكفاف عما يكرهه الله.

قلبه، فأوجب له ذٰلك العمل بما يرضي الله، خصوصًا الصلاة التي هي ميزان الإيمان، فهٰذا معنى الآية الكريمة.

وأما من فسر قوله: ﴿تَزَكَّىٰ﴾ بمعنى أخرج زكاة الفطر ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ أنه صلاة العيد، فإنه وإن كان داخلًا في اللفظ وبعض جزئياته، فليس هو المعنى وحده.

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: تقدمونها على الآخرة وتختارون نعيمها المنغص المكدر الزائل، على الآخرة.

[﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾] وللآخرة خير من الدنيا في كل وصف مطلوب ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ لكونها دار خلد وبقاء وصفاء، والدنيا دار فناء.

فالمؤمن العاقل لا يختار الأردأ على الأجود، ولا يبيع لذة ساعة بترحة الأبد.

فحب الدنيا وإيثارها على الآخرة رأس كل خطيئة.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ المذكور لكم في هٰذه السورة المباركة من الأوامر الحسنة والأخبار المستحسنة ﴿لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ○ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ اللذين هما أشرف المرسلين، سوى[1] النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

فهٰذه أوامر في كل شريعة لكونها عائدة إلى مصالح الدارين، وهي مصالح في كل زمان ومكان.

تم تفسير سورة سبح، ولله الحمد.

تفسير سورة الغاشية

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١-١٦) ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ○ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ○ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ○ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ○ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ○ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ○ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ○ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ○ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ○ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ○ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ○ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ○ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ○ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ○ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ○ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ يذكر تعالى أحوال يوم القيامة وما فيها من الأهوال الطامَّة، وأنها تغشى الخلائق بشدائدها، فيجازون بأعمالهم، ويتميزون [إلى] فريقين: فريقًا في الجنة وفريقًا في السعير.

فأخبر عن وصف كلا الفريقين، فقال في [وصف] أهل النار:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ من الذل والفضيحة والخزي.

الجزء الثلاثون ٥٩٢ سورة الغاشية

بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

سُورَةُ ٱلْغَٰشِيَةِ — مكية ٨٨ — آياتها ٢٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ أي: تاعبة في العذاب تُجَرُّ على وجوهها وتغشى وجوههم النار.

ويحتمل أن المراد [بقوله:] ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ○ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ في الدنيا لكونهم في الدنيا أهل عبادات وعمل، ولٰكنه لما عدم شرطه وهو الإيمان صار يوم القيامة هباء منثورًا.

وهٰذا الاحتمال وإن كان صحيحًا من حيث المعنى، فلا يدل عليه سياق الكلام، بل الصواب المقطوع به هو الاحتمال الأول؛ لأنه قيده بالظرف، وهو يوم القيامة، ولأن المقصود هنا بيان وصف أهل النار عمومًا، وذٰلك الاحتمال جزء قليل من أهل النار بالنسبة إلى أهلها[2]؛ ولأن الكلام في بيان حال الناس عند غشيان الغاشية، فليس فيه تعرض لأحوالهم في الدنيا.

وقوله: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ أي: شديدًا حرها، تحيط بهم من كل مكان ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ أي: حارةٍ شديدة الحرارة ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ فهٰذا شرابهم.

---

(١) في ب: بعد. (٢) في ب: جزء قليل بالنسبة إلى أهل النار.

وأما طعامهم فـ ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ○ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ وذلك أن المقصود من الطعام أحد أمرين:

إما أن يسد جوع صاحبه ويزيل عنه ألمه، وإما أن يسمن بدنه من الهزال.

وهٰذا الطعام ليس فيه شيء من هٰذين الأمرين، بل هو طعام في غاية المرارة والنتن والخسة، نسأل الله العافية.

وأما أهل الخير فوجوههم يوم القيامة ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ أي: قد جرت عليهم نضرة النعيم فنضرت أبدانهم، واستنارت وجوههم، وسروا غاية السرور.

﴿لِّسَعْيِهَا﴾ الذي قدمته في الدنيا من الأعمال الصالحة، والإحسان إلى عباد الله.

﴿رَاضِيَةٌ﴾ إذ وجدت ثوابه مدخرًا مضاعفًا فحمدت عقباه، وحصل لها كل ما تتمناه.

وذلك أنها ﴿فِي جَنَّةٍ﴾ جامعة لأنواع النعيم كلها ﴿عَالِيَةٍ﴾ في محلها ومنازلها، فمحلها في أعلى عليين، ومنازلها مساكن عالية، لها غرف ومن فوق الغرف غرف مبنية يشرفون منها على ما أعد الله لهم من الكرامة.

﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ أي: كثيرة الفواكه اللذيذة المثمرة بالثمار الحسنة السهلة التناول، بحيث ينالونها على أي حال كانوا، لا يحتاجون أن يصعدوا شجرة أو يستعصي عليهم منها ثمرة.

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا﴾ أي: الجنة ﴿لَاغِيَةً﴾ أي: كلمة لغو وباطل فضلًا عن الكلام المحرم، بل كلامهم كلامٌ حسن [نافع] مشتمل على ذكر الله تعالى وذكر نعمه المتواترة عليهم، و[على] الآداب المستحسنة[١] بين المتعاشرين، الذي يسر القلوب ويشرح الصدور.

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ وهٰذا اسم جنس أي: فيها العيون الجارية التي يفجرونها ويصرفونها كيف شاءوا وأنّى أرادوا.

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ و «السرر» جمع «سرير» وهي المجالس المرتفعة في ذاتها، وبما عليها من الفرش اللينة الوطيئة.

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ أي: أوانٍ ممتلئة من أنواع الأشربة اللذيذة قد وضعت بين أيديهم وأعدت لهم، وصارت تحت طلبهم واختيارهم، يطوف بها عليهم الولدان المخلدون.

﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ أي: وسائد من الحرير والإستبرق وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله، قد صفت للجلوس والاتكاء عليها، وقد أريحوا عن أن يضعوها، ويَصُفُّوها بأنفسهم.

﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ والزرابي [هي:] البسط الحسان، مبثوثة أي: مملوءة بها مجالسهم من كل جانب.

(١٧-٢٦) ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ○ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ○ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ○ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ○ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ○ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ○ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ○ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ○ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ○ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ يقول تعالى حثًّا للذين لا يصدقون الرسول ﷺ ولغيرهم من الناس، أن يتفكروا في مخلوقات الله الدالة على توحيده:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ أي: [ألا] ينظرون إلى خلقها البديع، وكيف سخرها الله للعباد وذللها لمنافعهم الكثيرة التي يضطرون إليها.

﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ بهيئة باهرة، حصل بها استقرار الأرض[٢] وثباتها عن الاضطراب، وأودع الله فيها من المنافع [الجليلة] ما أودع.

﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ أي: مدت مدًّا واسعًا وسهلت غاية التسهيل، ليستقر الخلائق[٣] على ظهرها، ويتمكنوا من حرثها وغراسها والبنيان فيها وسلوك الطرق الموصلة[٤] إلى أنواع المقاصد فيها.

واعلم أن تسطيحها لا ينافي أنها كرة مستديرة، قد أحاطت الأفلاك فيها من جميع جوانبها، كما دل على ذٰلك النقل والعقل والحس والمشاهدة، كما هو مذكور معروف عند أكثر[٥] الناس، خصوصًا في هٰذه الأزمنة التي وقف الناس على أكثر أرجائها بما أعطاهم الله من الأسباب المقربة للبعيد.

فإن التسطيح إنما ينافي كروية الجسم الصغير جدًّا، الذي لو سطح لم يبق له استدارة تذكر. وأما جسم الأرض الذي هو في غاية الكبر والسعة[٦] فيكون كرويًّا مسطحًا، ولا يتنافى الأمران كما يعرف ذٰلك أرباب الخبرة.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ أي: ذكِّر الناس وعِظهم وأنذرهم وبشِّرهم، فإنك مبعوث لدعوة الخلق إلى الله وتذكيرهم، ولم تبعث مسيطرًا عليهم، مسلّطًا موكّلًا بأعمالهم. فإذا قمت بما عليك فلا عليك بعد ذٰلك لوم كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

وقوله: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ أي: لٰكن من تولى عن الطاعة وكفر بالله ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ أي: الشديد الدائم ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ أي: رجوع الخليقة[٧] وجمعهم في يوم القيامة.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ فنحاسبهم على ما عملوا من خير وشر.

آخر تفسير سورة الغاشية، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) في ب: الحسنة. (٢) في ب: الاستقرار للأرض. (٣) في ب: العباد. (٤) في ب: طرقها. (٥) في ب: كثير. (٦) في ب: الذي هو كبير جدًّا واسع. (٧) في ب: الخلائق.

تفسير سورة الفجر

وهي مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١-٥) ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ○ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ○ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ○ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ○ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾ الظاهر أن المقسم به، هو المقسم عليه، وذلك جائز مستعمل، إذا كان أمرًا ظاهرًا مُهِمًّا، وهو كذلك في هذا الموضع.

فأقسم تعالى بالفجر الذي هو آخر الليل ومقدمة النهار، لما في إدبار الليل وإقبال النهار من الآيات الدالة على كمال قدرة الله تعالى، وأنه وحده المدبر[١] لجميع الأمور الذي لا تنبغي العبادة إلا له.

ويقع في الفجر صلاة فاضلة معظمة، يحسن أن يقسم الله بها.

ولهذا أقسم بعده بالليالي العشر، وهي على الصحيح: ليالي عشر رمضان، أو [عشر] ذي الحجة، فإنها ليال مشتملة على أيام فاضلة، ويقع فيها من العبادات والقربات ما لا يقع في غيرها.

وفي ليالي عشر رمضان ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وفي نهارها صيام آخر رمضان الذي هو ركن من أركان الإسلام.

وفي أيام عشر ذي الحجة، الوقوف بعرفة الذي يغفر الله فيه لعباده مغفرة يحزن لها الشيطان، فما رُئِيَ الشيطان أحقر ولا أدحر منه في يوم عرفة، لما يرى من تَنَزُّلِ الأملاك والرحمة من الله لعباده، ويقع فيها كثير من أفعال الحج والعمرة.

وهذه أشياء معظمة مستحقة لأن يقسم الله بها.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ أي: وقت سريانه وإرخائه ظلامه على العباد، فيسكنون ويستريحون، ويطمئنون، رحمة منه تعالى وحكمة.

﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾ أي: [لذي] عقل؟.

نعم، بعض ذلك يكفي، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

(٦-١٤) ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ○ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ○ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ○ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ○ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ○ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ○ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ○ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ

سورة الفجر — ترتيبها ٨٩ — آياتها ٣٠

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلۡفَجۡرِ ١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ٤ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ٥ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ١٨ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ٢٠ كَلَّآۖ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ٢٣

رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ○ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ يقول تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ بقلبك وبصيرتك كيف فُعل بهذه الأمم الطاغية، وهي ﴿إِرَمَ﴾ القبيلة المعروفة في اليمن ﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ أي: القوة الشديدة والعتو والتجبر.

﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا﴾ أي: مثل عاد ﴿فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ أي: في جميع البلدان [في القوة والشدة] كما قال لهم نبيهم هود عليه السلام: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ﴾ أي: وادي القرى، نحتوا بقوتهم الصخور فاتخذوها مساكن.

﴿وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ أي: [ذي] الجنود الذين ثبَّتوا ملكه، كما تُثَبِّت الأوتاد ما يراد إمساكه بها.

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ هذا الوصف عائد إلى عاد وثمود وفرعون ومن تبعهم، فإنهم طغوا في بلاد الله، وآذوا عباد الله في دينهم ودنياهم، ولهذا قال:

(١) في ب: وأنه تعالى هو المدبر.

﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ وهو العمل بالكفر وشُعَبِه من جميع أجناس المعاصي، وسعوا في محاربة الرسل وصد الناس عن سبيل الله.

فلما بلغوا من العتو ما هو موجب لهلاكهم، أرسل الله عليهم من عذابه ذنوبًا وسوط عذاب.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ لمن عصاه[1]، يمهله قليلًا ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

(١٥-٢٠) ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ○ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ○ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ○ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ○ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ○ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه جاهل ظالم لا علم له بالعواقب، يظن الحالة التي تقع فيه تستمر ولا تزول، ويظن أن إكرام الله في الدنيا وإنعامه عليه يدل على كرامته عنده وقربه منه.

وأنه إذا ﴿قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ أي: ضيّقه، فصار بقدر قوته لا يفضل منه، أن هٰذا إهانة من الله له، فرد الله عليه هٰذا الحسبان بقوله:

﴿كَلَّا﴾ أي: ليس كل من نَعَّمْتُه في الدنيا فهو كريم عليّ، ولا كل من قدرت عليه رزقه فهو مهان لديّ.

وإنما الغنى والفقر، والسعة والضيق ابتلاء من الله وامتحان يمتحن به العباد، ليرى من يقوم له بالشكر والصبر، فيثيبه على ذٰلك الثواب الجزيل ممن ليس كذٰلك فينقله إلى العذاب الوبيل.

وأيضًا، فإن وقوف همة العبد عند مراد نفسه فقط، من ضعف الهمة، ولهٰذا لامهم الله على عدم اهتمامهم بأحوال الخلق المحتاجين فقال:

﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ الذي فقد أباه وكاسبه، واحتاج إلى جبر خاطره والإحسان إليه.

فأنتم لا تكرمونه بل تهينونه، وهٰذا يدل على عدم الرحمة في قلوبكم، وعدم الرغبة في الخير.

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أي: لا يحض بعضكم بعضًا على إطعام المحاويج من المساكين والفقراء، وذٰلك لأجل الشح على الدنيا ومحبتها الشديدة المتمكنة من القلوب، ولهٰذا قال:

﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ أي: المال المخلف ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي: ذريعًا لا تبقون على شيء منه.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي: كثيرًا شديدًا، وهٰذا كقوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ○ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾، ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ○ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾.

(٢١-٣٠) ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ○ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ○ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ○ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ○ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ○ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ○ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ○ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ○ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ○ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾. ﴿كَلَّآ﴾ أي: ليس [كل] ما أحببتم من الأموال وتنافستم فيه من اللذات بباق لكم، بل أمامكم يوم عظيم، وهول جسيم، تدك فيه الأرض والجبال وما عليها، حتى تجعل قاعًا صفصفًا، لا عوج فيه ولا أمت.

ويجيء الله تعالى لفصل القضاء بين عباده في ظلل من الغمام.

وتجيء الملائكة الكرام أهل السماوات كلهم ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ أي: صفًا بعد صف، كل سماء يجيء ملائكتها صفًا يحيطون بمن دونهم من الخلق، وهٰذه الصفوف صفوف خضوع وذل للملك الجبار.

﴿وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ تقودها الملائكة بالسلاسل.

فإذا وقعت هٰذه الأمور فـ ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ما قدمه من خير وشر.

﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ فقد فات أوانها وذهب زمانها.

﴿يَقُولُ﴾ متحسرًا على ما فرط في جنب الله:

﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ الدائمة الباقية، عملًا صالحًا كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ○ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾.

وفي الآية دليل على أن الحياة التي ينبغي السعي في أصلها وكمالها[2] وفي تتميم لذّاتها، هي الحياة في دار القرار، فإنها دار الخلد والبقاء.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ لمن أهمل ذٰلك اليوم ونسي العمل له.

﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ فإنهم يقرنون بسلاسل من نار، ويسحبون على وجوههم في الحميم، ثم في النار يسجرون، فهٰذا جزاء المجرمين.

وأما من اطمأن إلى الله وآمن به، وصدق رسله فيقال له:

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ إلى ذكر الله، الساكنة [إلى] حبه، التي قرت عينها بالله.

---

(١) في ب: لمن يعصيه. (٢) في ب: السعي في كمالها وتحصيلها وكمالها.

﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ الذي رباك بنعمته، وأسدى عليك من إحسانه ما صرت به من أوليائه وأحبابه ﴿رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً﴾ أي: راضية عن الله وعن ما أكرمها به من الثواب، والله قد رضي عنها.

﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ وهٰذا تخاطب به الروح يوم القيامة، وتخاطب به في حال الموت[1].

[والحمد لله رب العالمين].

تفسير سورة لا أقسم بهذا البلد[2]

مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١-٢٠) ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ۝ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ۝ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ۝ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ۝ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۝ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ۝ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ يقسم تعالى ﴿بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ الأمين الذي هو مكة المكرمة، أفضل البلدان على الإطلاق، خصوصًا وقت حلول الرسول ﷺ فيها.

﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾ أي: آدم وذريته.

والمقسم عليه قوله: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ يحتمل أن المراد بذلك ما يكابده ويقاسيه من الشدائد في الدنيا، وفي البرزخ، ويوم يقوم الأشهاد.

وأنه ينبغي له أن يسعى في عمل يريحه من هذه الشدائد، ويوجب له الفرح والسرور الدائم.

وإن لم يفعل، فإنه لا يزال يكابد العذاب الشديد أبد الآباد.

ويحتمل أن المعنى: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم وأقوم خلقة، مقدرٍ[3] على التصرف والأعمال الشديدة.

ومع ذٰلك [فإنه] لم يشكر الله على هٰذه النعمة [العظيمة]، بل بطر بالعافية وتجبّر على خالقه، فحسب بجهله وظلمه أن هٰذه الحال ستدوم له، وأن سلطان تصرفه لا ينعزل، ولهٰذا قال تعالى:

﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ﴾ ويطغى ويفتخر بما أنفق من

الجزء الثلاثون ٥٩٤ سورة البلد

يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾

سُورَةُ البَلَدِ — ترتيبها ٩٠ — آياتها ٢٠

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ﴿٢٠﴾

سُورَةُ الشَّمۡسِ — ترتيبها ٩١ — آياتها ١٥

الأموال على شهوات نفسه، ف ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾ أي: كثيرًا بعضه فوق بعض.

وسمى الله تعالى الإنفاق في الشهوات والمعاصي إهلاكًا، لأنه لا ينتفع المنفق بما أنفق، ولا يعود عليه من إنفاقه إلا الندم والخسار والتعب والقلة، لا كمن أنفق في مرضاة الله في سبيل الخير، فإن هٰذا قد تاجر مع الله وربح أضعاف أضعاف ما أنفق.

قال الله متوعدًا هٰذا الذي يفتخر بما أنفق في الشهوات:

﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي: أيحسب[4] في فعله هٰذا، أن الله لا يراه ويحاسبه على الصغير والكبير؟.

بل قد رآه الله وحفظ عليه أعماله، ووكل به الكرام الكاتبين لكل ما عمله من خير وشر.

ثم قرره بنعمه فقال: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ﴾ للجمال والبصر والنطق، وغير ذٰلك من المنافع الضرورية فيها، فهٰذه نعم الدنيا.

---

(١) في ب: وقت السياق والموت. (٢) في ب: سورة البلد. (٣) في ب: يقدر. (٤) في ب: أيظن.

ثم قال في نعم الدين: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ أي: طريقي الخير والشر، بينا له الهدى من الضلال والرشد من الغي.

فهٰذه المنن الجزيلة تقتضي من العبد أن يقوم بحقوق الله، ويشكر الله على نعمه، وأن لا يستعين بها على معاصيه[١]، ولكن هٰذا الإنسان لم يفعل ذٰلك.

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ أي: لم يقتحمها ويعبر عليها، لأنه متبع لشهواته[٢].

وهٰذه العقبة شديدة عليه، ثم فسر [هٰذه] العقبة بقوله:

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ أي: فكها من الرق بعتقها أو مساعدتها على أداء كتابتها، ومن باب أولى فكاك الأسير المسلم عند الكفار.

﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ أي: مجاعة شديدة بأن يطعم وقت الحاجة أشد الناس حاجة.

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي: جامعًا بين كونه يتيمًا فقيرًا ذا قرابة.

﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أي: قد لزق بالتراب من الحاجة والضرورة.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[٣] أي: آمنوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به، وعملوا الصالحات بجوارحهم من كل قول[٤] وفعل واجب أو مستحب.

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ على طاعة الله وعن معصيته، وعلى أقدار الله المؤلمة بأن يحث بعضهم بعضًا على الانقياد لذٰلك، والإتيان به كاملًا منشرحًا به الصدر مطمئنة به النفس.

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ للخلق من إعطاء محتاجهم وتعليم جاهلهم والقيام بما يحتاجون إليه من جميع الوجوه، ومساعدتهم على المصالح الدينية والدنيوية، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه.

أولٰئك الذين قاموا بهٰذه الأوصاف الذين وفقهم الله لاقتحام هذه العقبة ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ لأنهم أدوا ما أمر الله به من حقوقه وحقوق عباده، وتركوا ما نهوا عنه، وهٰذا عنوان السعادة وعلامتها.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بأن نبذوا هٰذه الأمور وراء ظهورهم، فلم يصدقوا بالله، [ولا آمنوا به] ولا عملوا صالحًا، ولا رحموا عباد الله.

﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ أي: مغلقة في عمد ممددة، قد مدت من ورائها، لئلا تنفتح أبوابها، حتى يكونوا في ضيق وهَمّ وشدّة.

[والحمد لله].

تفسير سورة والشمس وضحاها

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١-١٥) ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ أقسم تعالى بهٰذه الآيات العظيمة على النفس المفلحة وغيرها من النفوس الفاجرة فقال:

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ أي: نورها ونفعها الصادر منها.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ أي: تبعها في المنازل والنور.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ أي: جلّى ما على وجه الأرض وأوضحه.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ أي: يغشى وجه الأرض فيكون ما عليها مظلمًا.

فتعاقب الظلمة والضياء والشمس والقمر على هٰذا العالم بانتظام وإتقان وقيام[٥] لمصالح العباد، أكبر دليل على أن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه المعبود وحده الذي كل معبود سواه فباطل.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ يحتمل أن «ما» موصولة، فيكون الإقسام بالسماء وبانيها الذي هو الله تبارك وتعالى.

ويحتمل أنها مصدرية، فيكون الإقسام بالسماء وبنيانها، الذي هو غاية ما يقدر من الإحكام والإتقان والإحسان.

ونحو ذلك قوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ أي: مدها ووسعها، فتمكن الخلق حينئذ من الانتفاع بها بجميع وجوه[٦] الانتفاع.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ يحتمل أن المراد نفس سائر المخلوقات الحيوانية كما يؤيد هٰذا العموم.

ويحتمل أن المراد بالإقسام بنفس الإنسان المكلف بدليل ما يأتي بعده.

وعلى كُلٍّ، فالنفس آية كبيرة من آياته التي حقيقةٌ بالإقسام

---

(١) في ب: على معاصي الله. (٢) في ب: لهواه. (٣) سبق قلم الشيخ فزاد في الآية ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فحذفت الزيادة في الآية وأبقيت التفسير. (٤) في ب: فدخل في هذا كل قول. (٥) كذا في ب، وفي أ: وانتظام. (٦) في ب: أوجه.

بها(١)، فإنها في غاية اللطف والخفة، سريعة التنقل [والحركة] والتغير والتأثر والانفعالات النفسية من الهم والإرادة والقصد والحب والبغض.

وهي التي لولاها لكان البدن مجرد تمثال لا فائدة فيه، وتسويتها على هذا الوجه(٢)، آية من آيات الله العظيمة.

وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ أي: طهر نفسه من الذنوب ونقاها من العيوب ورقَّاها بطاعة الله، وعلَّاها بالعلم النافع والعمل الصالح.

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أي: أخفى نفسه الكريمة التي ليست حقيقة بقمعها وإخفائها بالتدنس بالرذائل، والدنو من العيوب والاقتراف للذنوب، وترك ما يكملها وينميها واستعمال ما يشينها ويدسيها.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ أي: بسبب طغيانها وترفعها عن الحق وعتوها على رسل الله(٣).

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ أي: أشقى القبيلة، [وهو] «قدار بن سالف» لعقرها حين اتفقوا على ذلك، وأمروه فأتمر لهم.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ صالح عليه السلام محذرًا:

﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ أي: احذروا عقر ناقة الله التي جعلها لكم آية عظيمة، ولا تقابلوا نعمة الله عليكم بسَقْيِ لبنها أن تعقروها.

فكذبوا نبيهم صالحًا ﴿فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾ أي: دمر عليهم وعمهم بعقابه، وأرسل عليهم الصيحة من فوقهم والرجفة من تحتهم، فأصبحوا جاثمين على ركبهم، لا تجد منهم داعيًا ولا مجيبًا.

﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ عليهم أي: سوى بينهم بالعقوبة(٤) ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ أي: تبِعَتَها.

وكيف يخاف من هو قاهر، لا يخرج عن قهره وتصرفه مخلوق، الحكيم في كل ما قضاه وشرعه؟

تمت ولله الحمد.

تفسير سورة والليل

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١-٢١) ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ○ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ○ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ○ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ○ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ○ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ○ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ○ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ○ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ○ فَسَنُيَسِّرُهُۥ

[مصحف، صفحة ٥٩٥ — الجزء الثلاثون — سورة الشمس]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾

سُورَةُ اللَّيْلِ — ترتيبها ٩٢ — آياتها ٢١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾

لِلْعُسْرَىٰ ○ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ○ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ○ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ○ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ○ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ○ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ○ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ○ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ○ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ○ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ○ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ هذا قسم من الله بالزمان الذي تقع فيه أفعال العباد على تفاوت أحوالهم فقال:

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [أي: يعم] الخلق بظلامه فيسكن كلٌّ إلى مأواه ومسكنه، ويستريح العباد من الكد والتعب.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ للخلق، فاستضاءوا بنوره، وانتشروا في مصالحهم.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ إن كانت «ما» موصولة كان إقسامًا بنفسه الكريمة الموصوفة، بأنه(٥) خالق الذكور والإناث، وإن كانت مصدرية كان قسمًا بخلقه للذكر والأنثى.

وكمال حكمته في ذلك أن خلق من كل صنف من الحيوانات التي يريد بقاءها ذكرًا وأنثى ليبقى النوع ولا

---

(١) في ب: يحق الإقسام بها. (٢) في ب: على ما هي عليه. (٣) في ب: على رسولهم. (٤) في ب: في العقوبة. (٥) في ب: بكونه.

يضمحل، وقاد كلًّا منهما إلى الآخر بسلسلة الشهوة.

وجعل كلًّا منهما مناسبًا للآخر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ هذا [هو] المقسم عليه أي: إن سعيكم أيها المكلفون لمُتفاوِتٌ تفاوتًا كثيرًا، وذلك بحسب تفاوت نفس الأعمال ومقدارها والنشاط فيها، وبحسب الغاية المقصودة بتلك الأعمال، هل هو وجه الله الأعلى الباقي؟ فيبقى السعي له[١] ببقائه وينتفع به صاحبه أم هي غاية مضمحلة فانية، فيبطل السعي ببطلانها ويضمحل باضمحلالها؟.

وهذا كل عمل يقصد به غير وجه الله تعالى بهٰذا الوصف.

ولهٰذا فصَّل الله تعالى العاملين، ووصف أعمالهم فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ [أي:] ما أمر به من العبادات المالية كالزكوات والكفارات والنفقات، والصدقات والإنفاق في وجوه الخير.

والعبادات البدنية كالصلاة والصوم نحوهما.

والمركّبة منهما كالحج والعمرة [ونحوهما].

﴿وَاتَّقَىٰ﴾ ما نهي عنه من المحرمات والمعاصي، على اختلاف أجناسها.

﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي: صدّق بـ «لا إلٰه إلا الله» وما دلت عليه من جميع العقائد الدينية، وما ترتب عليها من الجزاء الأخروي.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي: نسهل عليه أمره ونجعله ميسرًا له[٢] كل خير، ميسرًا له ترك كل شر، لأنه أتى بأسباب التيسير فيسر الله له ذلك.

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ بما أمر به فترك الإنفاق الواجب والمستحب، ولم تسمح نفسه بأداء ما وجب لله.

﴿وَاسْتَغْنَىٰ﴾ عن الله، فترك عبوديته جانبًا، ولم ير نفسه مفتقرة غاية الافتقار إلى ربها، الذي لا نجاة لها ولا فوز ولا فلاح إلا بأن يكون هو محبوبها ومعبودها، الذي تقصده وتتوجه إليه.

﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي: بما أوجب الله على العباد التصديق به من العقائد الحسنة.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ أي: للحالة العسرة والخصال الذميمة، بأن يكون ميسرًا للشر أينما كان، ومقيضًا له أفعال المعاصي، نسأل الله العافية.

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ﴾ الذي أطغاه واستغنى به وبخل به إذا هلك ومات، فإنه لا يصحبه إلا عمله الصالح[٣].

وأما ماله [الذي لم يخرج منه الواجب] فإنه يكون وبالًا عليه إذ لم يقدم منه لآخرته شيئًا.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أي: إن الهدى المستقيم طريقه، يوصل إلى الله ويدني من رضاه.

وأما الضلال فطرق مسدودة عن الله، لا توصل صاحبها إلا للعذاب الشديد.

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ ملكًا وتصرفًا ليس له فيهما مشارك، فليرغب الراغبون إليه في الطلب، ولينقطع رجاؤهم عن المخلوقين.

﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ أي: تستعر وتتوقد.

﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝ الَّذِي كَذَّبَ﴾ بالخبر ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الأمر.

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ بأن يكون قصده به تزكية نفسه، وتطهيرها من الذنوب والعيوب[٤]، قاصدًا به وجه الله تعالى.

فدل هٰذا على أنه إذا تضمن الإنفاق المستحب ترك واجب كدين ونفقة ونحوهما، فإنه غير مشروع، بل تكون عطيته مردودة عند كثير من العلماء، لأنه لا يتزكى بفعل مستحب يفوت عليه الواجب.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾ أي: ليس لأحد من الخلق على هٰذا الأتقى نعمة تجزى إلا وقد كافأه بها، وربما بقي له الفضل والمنة على الناس، فتمحض عبدًا لله، لأنه رقيق إحسانه وحده.

وأما من بقي[٥] عليه نعمة الناس لم يجزها ويكافئها، فإنه لا بد أن يترك للناس، ويفعل لهم ما ينقص [إخلاصه].

وهٰذه الآية وإن كانت متناولة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، بل قد قيل: إنها نزلت في سببه، فإنه - رضي الله عنه - ما لأحد عنده من نعمة تجزى، حتى ولا رسول الله ﷺ إلا نعمة الرسول التي لا يمكن جزاؤها، وهي [نعمة] الدعوة إلى دين الإسلام، وتعليم الهدى ودين الحق، فإن لله ورسوله المنة على كل أحد؛ منةٌ لا يمكن لها جزاء ولا مقابلة، فإنها متناولة لكل من اتصف بهٰذا الوصف الفاضل. فلم يبق لأحد عليه من الخلق نعمة تجزى، فبقيت أعماله خالصة لوجه الله تعالى.

ولهٰذا قال: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ هٰذا الأتقى بما يعطيه الله من أنواع الكرامات والمثوبات.

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) في ب: العمل له. (٢) في ب: أي: نيسر له أمره ونجعله مسهلًا عليه. (٣) في ب: فإنه لا يصحب الإنسان إلا عمله الصالح. (٤) في ب: والأدناس. (٥) في ب: بقيت.

تفسير سورة والضحى

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١-١١) ﴿وَالضُّحَىٰ ○ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ○ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ○ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ ○ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ○ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ○ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ○ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ○ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ○ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ○ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أقسم تعالى بالنهار إذا انتشر ضياؤه بالضحى، وبالليل إذا سجى وادلهمَّت ظلمته، على اعتناء الله برسوله ﷺ فقال:

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أهملك منذ رباك ورعاك، بل لم يزل يربيك أحسن تربية، ويعليك درجة بعد درجة.

﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ كَ اللهُ، أي: ما أبغضك منذ أحبك، فإن نفي الضد دليل على ثبوت ضده، والنفي المحض لا يكون مدحًا إلا إذا تضمن ثبوت كمال.

فهٰذه حال الرسول ﷺ الماضية والحاضرة أكمل حال وأتمها، محبة الله له واستمرارها وترقيته في درج[1] الكمال ودوام اعتناء الله به.

وأما حاله المستقبلة فقال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ أي: كل حالة متأخرة من أحوالك فإن لها الفضل على الحالة السابقة.

فلم يزل ﷺ يصعد في درج[2] المعالي، ويمكّن له الله دينه وينصره على أعدائه ويسدد له أحواله حتى مات، وقد وصل إلى حال لا يصل[3] إليها الأولون والآخرون من الفضائل والنعم وقرة العين وسرور القلب.

ثم بعد ذلك، لا تسأل عن حاله في الآخرة من تفاصيل الإكرام وأنواع الإنعام.

ولهٰذا قال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ وهٰذا أمر لا يمكن التعبير عنه بغير هٰذه العبارة الجامعة الشاملة.

ثم امتن عليه بما يعلمه من أحواله[4] [الخاصة] فقال:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ أي: وجدك لا أم لك ولا أب، بل قد مات أبوه وأمه وهو لا يدبر نفسه، فآواه الله وكفله جده عبد المطلب، ثم لما مات جده كفّله الله عمه أبا طالب حتى أيده الله بنصره وبالمؤمنين.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ أي: وجدك لا تدري ما الكتاب

الجزء الثلاثون ٥٩٦ سورة الضحى

لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١)

سُورَةُ الضُّحَىٰ — ترتيبها ٩٣ — آياتها ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)

سُورَةُ الشَّرْحِ — ترتيبها ٩٤ — آياتها ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب (٨)

ولا الإيمان، فعلَّمك ما لم تكن تعلم، ووفّقك لأحسن الأعمال والأخلاق.

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾ أي: فقيرًا ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ بما فتح الله عليك[5] من البلدان التي جُبيت لك أموالها وخراجها.

فالذي أزال عنك هٰذه النقائص سيزيل عنك كل نقص، والذي أوصلك إلى الغنى وآواك ونصرك وهداك، قابِلْ نعمته بالشكران.

[ولهٰذا قال:] ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ أي: لا تسئ معاملة اليتيم ولا يضق صدرك عليه ولا تنهره، بل أكرمه وأعطه ما تيسر، واصنع به كما تحب أن يصنع بولدك من بعدك.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي: لا يصدر منك إلى السائل[6] كلام، يقتضي رده عن مطلوبه بنهر وشراسة خلق، بل أعطه ما تيسر عندك أو ردّه بمعروف [وإحسان].

وهذا يدخل فيه السائل للمال والسائل للعلم، ولهٰذا كان

(١) في ب: درجات. (٢) في ب: درجات. (٣) في ب: ما وصل.
(٤) كذا في ب، وفي أ: الأحوال. (٥) في ب: فأغناك الله بما فتح عليك. (٦) في ب: لا يصدرك منك كلام للسائل.

المعلم مأمورًا بحسن الخلق مع المتعلم، ومباشرته بالإكرام والتحنن عليه، فإن في ذلك معونة له على مقصده وإكرامًا لمن كان يسعى في نفع العباد والبلاد.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ [وهذا يشمل] النعم الدينية والدنيوية ﴿فَحَدِّثْ﴾ أي: أثنِ على الله بها وخصِّصْها بالذكر إن كان هناك مصلحة.

وإلا فحدث بنعم الله على الإطلاق، فإن التحدث بنعمة الله داع لشكرها، وموجب لتحبيب القلوب إلى من أنعم بها، فإن القلوب مجبولة على محبة المحسن.

تفسير سورة ألم نشرح [لك صدرك]

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١-٨) ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۞ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۞ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۞ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۞ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۞ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۞ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۞ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ يقول تعالى - ممتنًّا على رسوله -: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ أي: نوسعه لشرائع الدين والدعوة إلى الله والاتصاف بمكارم الأخلاق والإقبال على الآخرة وتسهيل الخيرات.

فلم يكن ضيقًا حرجًا لا يكاد ينقاد لخير ولا تكاد تجده منبسطًا.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ أي: ذنبك ﴿الَّذِي أَنقَضَ﴾ أي: أثقل ﴿ظَهْرَكَ﴾ كما قال تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أي: أعلينا قدرك، وجعلنا لك الثناء الحسن العالي الذي لم يصل إليه أحد من الخلق.

فلا يذكر الله إلا ذكر معه رسوله ﷺ، كما في الدخول في الإسلام، وفي الأذان، والإقامة، والخطب، وغير ذلك من الأمور التي أعلى الله بها ذكر رسوله محمد ﷺ. وله في قلوب أمته من المحبة والإجلال والتعظيم، ما ليس لأحد غيره بعد الله تعالى. فجزاه الله عن أمته أفضل ما جزى نبيًّا عن أمته.

وقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۞ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ بشارة عظيمة، أنه كلما وجد عسر وصعوبة، فإن اليسر يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جحر ضب لدخل عليه اليسر فأخرجه، كما قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾.

وكما قال النبي ﷺ: «وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرًا».

وتعريف «العسر» في الآيتين يدل على أنه واحد، وتنكير «اليسر» يدل على تكراره، فلن يغلب عسر يسرين.

وفي تعريفه بالألف واللام، الدالة على الاستغراق والعموم يدل على أن كل عسر - وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ - فإنه في آخره التيسير ملازم له.

ثم أمر الله رسوله أصلًا والمؤمنين تبعًا بشكره والقيام بواجب نعمه فقال:

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ أي: إذا تفرغت من أشغالك ولم يبق في قلبك ما يعوقه، فاجتهد في العبادة والدعاء.

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وحده ﴿فَارْغَب﴾ أي: أعظم الرغبة في إجابة دعائك وقبول عباداتك[1].

ولا تكن ممن إذا فرغوا وتفرغوا لعبوا وأعرضوا عن ربهم وعن ذكره، فتكون من الخاسرين.

وقد قيل: إن معنى قوله: فإذا فرغت من الصلاة وأكملتها فانصب في الدعاء.

وإلى ربك فارغب في سؤال مطالبك.

واستدل من قال بهذا القول على مشروعية الدعاء والذكر عقب الصلوات المكتوبات، والله أعلم بذلك.

تمت، ولله الحمد.

تفسير سورة والتين

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١-٨) ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۞ وَطُورِ سِينِينَ ۞ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۞ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۞ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۞ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۞ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾. ﴿التِّينِ﴾ هو التين المعروف، وكذلك ﴿الزَّيْتُونِ﴾ أقسم بهاتين الشجرتين لكثرة منافع شجرهما وثمرهما، ولأن سلطانهما في أرض الشام محل نبوة عيسى ابن مريم عليه السلام.

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ أي: طور سيناء محل نبوة موسى ﷺ.

﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ وهي مكة المكرمة محل نبوة محمد ﷺ.

---

(١) في ب: دعواتك.


الجزء الثلاثون ٥٩٧ سورة التين

سُورَةُ التِّينِ (ترتيبها ٩٥ - آياتها ٨)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

سُورَةُ الْعَلَقِ (ترتيبها ٩٦ - آياتها ١٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

فأقسم تعالى بهٰذه المواضع المقدسة التي اختارها وابتعث منها أفضل النبوات[1] وأشرفها.

والمقسم عليه قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أي: تام الخلق، متناسب الأعضاء، منتصب القامة، لم يفقد مما يحتاج إليه ظاهرًا أو باطنًا شيئًا.

ومع هٰذه النعم العظيمة التي ينبغي منه القيام بشكرها، فأكثر الخلق منحرفون عن شكر المنعم، مشتغلون باللهو واللعب، قد رضوا لأنفسهم بأسافل الأمور وسفساف الأخلاق. فردهم الله في أسفل سافلين أي: أسفل النار، موضع العصاة المتمردين على ربهم، إلا من منَّ الله عليه بالإيمان، والعمل الصالح، والأخلاق الفاضلة العالية.

﴿فَلَهُمْ﴾ بذٰلك المنازل العالية و ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع، بل لذات متوافرة، وأفراح متواترة، ونعم متكاثرة، في أبدٍ لا يزول، ونعيم لا يحول، أكُلها دائم وظلها.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ أي: أي شيء يكذبك أيها الإنسان بيوم الجزاء على الأعمال، وقد رأيت من آيات الله الكثيرة ما به يحصل لك اليقين، ومن نعمه ما يوجب عليك أن لا تكفر بشيء مما أخبرك به؟.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ فهل تقتضي حكمته أن يترك الخلق سدى لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يُثابون ولا يُعاقبون؟.

أم الذي خلق الإنسان أطوارًا بعد أطوار، وأوصل إليهم من النعم والخير والبر ما لا يحصونه، ورباهم التربية الحسنة، لا بد أن يعيدهم إلى دار هي مستقرهم وغايتهم، التي إليها يقصدون ونحوها يؤمون.

تمت، ولله الحمد.

تفسير سورة اقرأ

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١-١٩) ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ○ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ○ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ○ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ○ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ○ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ○ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ○ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ○ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ○ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ○ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ○ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ○ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ○ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ○ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ○ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ○ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ○ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ○ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ هٰذه السورة أول السور القرآنية نزولًا على رسول الله ﷺ.

فإنها نزلت عليه في مبادىء النبوة إذ كان لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان.

فجاءه جبريل عليه الصلاة والسلام بالرسالة، وأمره أن يقرأ فامتنع وقال: «ما أنا بقارىء» فلم يزل به حتى قرأ.

فأنزل الله عليه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ عموم الخلق.

ثم خص الإنسان وذكر ابتداء خلقه ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ فالذي خلق الإنسان واعتنى بتدبيره، لا بد أن يدبره بالأمر والنهي، وذٰلك بإرسال الرسول إليهم[2] وإنزال الكتب عليهم.

ولهٰذا ذكر[3] بعد الأمر بالقراءة خلقه[4] للإنسان.

ثم قال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ أي: كثير الصفات واسعها، كثير الكرم والإحسان، واسع الجود الذي من كرمه أن علم بالعلم[5].

و ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ○ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فإنه تعالى أخرجه من

---

(١) في ب: أفضل الأنبياء وأشرفهم. (٢) في ب: بإرسال الرسل. (٣) في ب: ولهذا أتى. (٤) في ب: بخلقه. (٥) في ب: بأنواع العلوم.

بطن أمه لا يعلم شيئًا، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، وبسر له أسباب العلم.

فعلمه القرآن وعلمه الحكمة، وعلمه بالقلم، الذي به تحفظ العلوم وتضبط الحقوق وتكون رسلًا للناس، تنوب مناب خطابهم.

فلله الحمد والمنة، الذي أنعم على عباده بهٰذه النعم التي لا يقدرون لها، على جزاء ولا شكور، ثم منّ عليهم بالغنى وسعة الرزق.

ولٰكن الإنسان - لجهله وظلمه - إذا رأى نفسه غنيًّا طغى وبغى وتجبر عن الهدى، ونسي أن إلى ربه الرجعى، ولم يخف الجزاء، بل ربما وصلت به الحال أنه يترك الهدى بنفسه، ويدعو [غيره] إلى تركه، فينهى عن الصلاة التي هي أفضل أعمال الإيمان، يقول الله لهٰذا المتمرد العاتي:

﴿أَرَءَيْتَ﴾ أيها الناهي للعبد إذا صلى ﴿إِن كَانَ﴾ العبد المصلي ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ العلم بالحق والعمل به ﴿أَوْ أَمَرَ﴾ غيره ﴿بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾.

فهل يحسن أن ينهى من هٰذا وصفه؟ أليس نهيه من أعظم المحادَّة لله والمحاربة للحق؟ فإن النهي لا يتوجه إلا لمن هو في نفسه على غير الهدى، أو كان يأمر غيره بخلاف التقوى.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ﴾ الناهي بالحق ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ عن الأمر، أما يخاف الله ويخشى عقابه؟ ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ ما يعمل ويفعل؟.

ثم توعده إن استمر على حاله فقال: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ عما يقول ويفعل ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ أي: لنأخذن بناصيته أخذًا عنيفًا، وهي حقيقة بذٰلك، فإنها ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أي: كاذبة في قولها خاطئة في فعلها.

﴿فَلْيَدْعُ﴾ هٰذا الذي حق عليه العقاب[1] ﴿نَادِيَهُۥ﴾ أي: أهل مجلسه وأصحابه، ومن حوله ليعينوه على ما نزل به.

﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ أي: خزنة جهنم لأخذه وعقوبته.

فلينظر أي الفريقين أقوى وأقدر؟ فهٰذه حالة الناهي وما توعد به من العقوبة.

وأما حالة المنهي فأمره الله أن لا يصغي إلى هٰذا الناهي ولا ينقاد لنهيه فقال:

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ [أي:] فإنه لا يأمر إلا بما فيه خسارة الدارين.

﴿وَٱسْجُدْ﴾ لربك ﴿وَٱقْتَرِب﴾ منه في السجود وغيره من أنواع الطاعات والقربات، فإنها كلها تُدْني من رضاه وتقرب منه، وهٰذا عام لكل ناهٍ عن الخير ومنهي عنه، وإن كانت نازلة في شأن أبي جهل حين نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة وعبث به[2] وآذاه.

تمت ولله الحمد.

تفسير سورة القدر

[وهي] مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١-٥) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ○ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ○ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ○ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ○ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ يقول تعالى - مبينًا لفضل القرآن وعلو قدره -: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ وذٰلك أن الله [تعالى] ابتدأ بإنزاله[3] في رمضان [في] ليلة القدر ورحم الله بها العباد رحمةً عامة، لا يقدر العباد لها شكرًا.

وسميت ليلة القدر لعظم قدرها وفضلها عند الله، ولأنه يقدر فيها ما يكون في العام من الآجال والأرزاق والمقادير القدرية.

ثم فخّم شأنها وعظّم مقدارها فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ أي: فإن شأنها جليل وخطرها عظيم.

﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أي: تعادل من فضلها ألف شهر، فالعمل الذي يقع فيها خير من العمل في ألف شهر [خالية منها].

وهٰذا مما تتحير فيه[4] الألباب، وتندهش له العقول، حيث منَّ تبارك وتعالى على هٰذه الأمة الضعيفة القوة والقوى بليلة يكون العمل فيها يقابل ويزيد على ألف شهر، عمر رجل معمر عمرًا طويلًا، نيفًا وثمانين سنة.

﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ أي: يكثر نزولهم فيها ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ ○ سَلَٰمٌ هِىَ﴾ أي: سالمة من كل آفة وشر، وذٰلك لكثرة خيرها.

﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ أي: مبتداها من غروب الشمس ومنتهاها طلوع الفجر[5].

وقد تواترت الأحاديث في فضلها، وأنها في رمضان وفي العشر الأواخر منه خصوصًا في أوتاره، وهي باقية في كل سنة

(١) في ب: العذاب. (٢) في ب: وعذبه. (٣) في ب: ابتدأ بإنزال القرآن. (٤) كذا في ب، وفي أ: به. (٥) كذا في ب، وفي أ: تنتهي من غروب الشمس إلى طلوع الفجر.

إلى قيام الساعة.

ولهذا كان النبي ﷺ يعتكف، ويكثر من التعبد في العشر الأواخر من رمضان رجاء لليلة القدر، [والله أعلم].

تفسير سورة لم يكن

وهي مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١-٨) ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ○ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ○ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ○ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ○ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ○ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ○ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ○ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ يقول تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: [من] اليهود والنصارى ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ من سائر أصناف الأمم.

﴿مُنفَكِّينَ﴾ عن كفرهم وضلالهم الذي هم عليه أي: لا يزالون في غيهم وضلالهم لا يزيدهم مرور السنين[1] إلا كفرًا.

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ الواضحة، والبرهان الساطع، ثم فسر تلك البينة فقال:

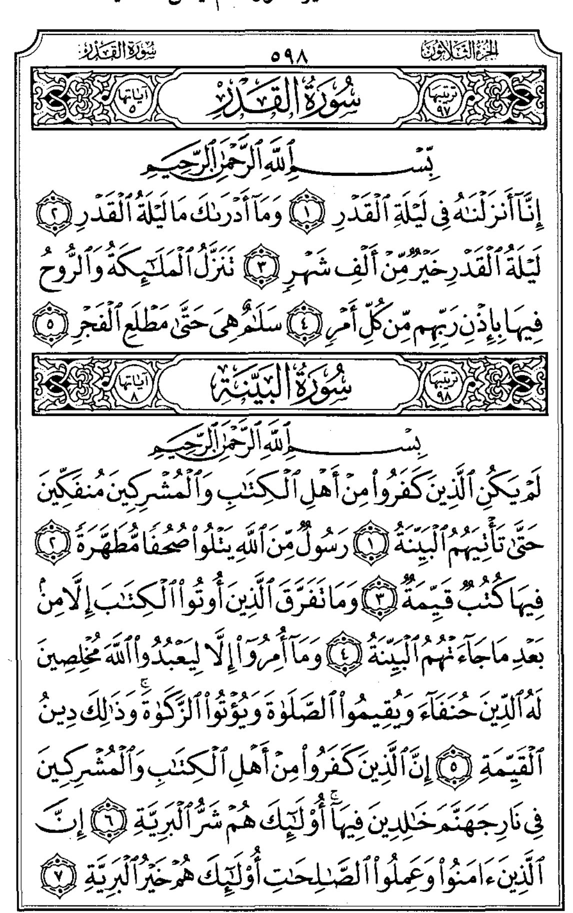
﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: أرسله الله يدعو الناس إلى الحق، وأنزل عليه كتابًا يتلوه، ليعلم الناس الحكمة ويزكيهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ولهذا قال:

﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ أي: محفوظة عن قربان الشياطين لا يمسها إلا المطهرون، لأنها في أعلى ما يكون من الكلام.

ولهذا قال عنها: ﴿فِيهَا﴾ أي: في تلك الصحف ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أي: أخبار صادقة وأوامر عادلة تهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

فإذا جاءتهم هذه البينة، فحينئذ يتبين طالب الحق ممن ليس له مقصد في طلبه، فيهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيَّ عن بينة.

وإذا لم يؤمن أهل الكتاب لهذا الرسول وينقادوا له، فليس ذلك ببدع من ضلالهم وعنادهم، فإنهم ما تفرّقوا واختلفوا


الجزء الثلاثون ٥٩٨ سورة القدر

سورة القدر — ترتيبها ٩٧ — آياتها ٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

سورة البينة — ترتيبها ٩٨ — آياتها ٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾

وصاروا أحزابًا ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ التي توجب لأهلها الاجتماع والاتفاق.

ولكنهم لرداءتهم ونذالتهم لم يزدهم الهدى إلا ضلالًا، ولا البصيرة إلا عمى، مع أن الكتب كلها جاءت بأصل واحد ودين واحد.

فما أمروا في سائر الشرائع إلا أن يعبدوا ﴿ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله وطلب الزلفى لديه.

﴿حُنَفَآءَ﴾ أي: معرضين [مائلين] عن سائر الأديان المخالفة لدين التوحيد.

وخصّ الصلاة والزكاة [بالذكر] مع أنهما داخلان في قوله: ﴿لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ لفضلهما وشرفهما، وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: التوحيد والإخلاص في الدين هو ﴿دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ أي: الدين المستقيم الموصل إلى جنات النعيم، وما

(١) في ب: الأوقات.

سواه فطرق موصلة إلى الجحيم.

ثم ذكر جزاء الكافرين بعد ما جاءتهم البينة فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ قد أحاط بهم عذابها، واشتد عليهم عقابها.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ لا يفتر عنهم العذاب وهم فيها مبلسون.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ لأنهم عرفوا الحق وتركوه، وخسروا الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ لأنهم عبدوا الله وعرفوه، وفازوا بنعيم الدنيا والآخرة.

﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي: جنات إقامة، لا ظعن فيها ولا رحيل، ولا طلب لغاية فوقها.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ فرضي عنهم بما قاموا به من مراضيه، ورضوا عنه بما أعد لهم من أنواع الكرامات وجزيل المثوبات.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الجزاء الحسن ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ أي: لمن خاف الله فأحجم عن معاصيه، وقام بواجباته[1].

[تمت والحمد لله].

تفسير سورة إذا زلزلت[2]

وهي مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

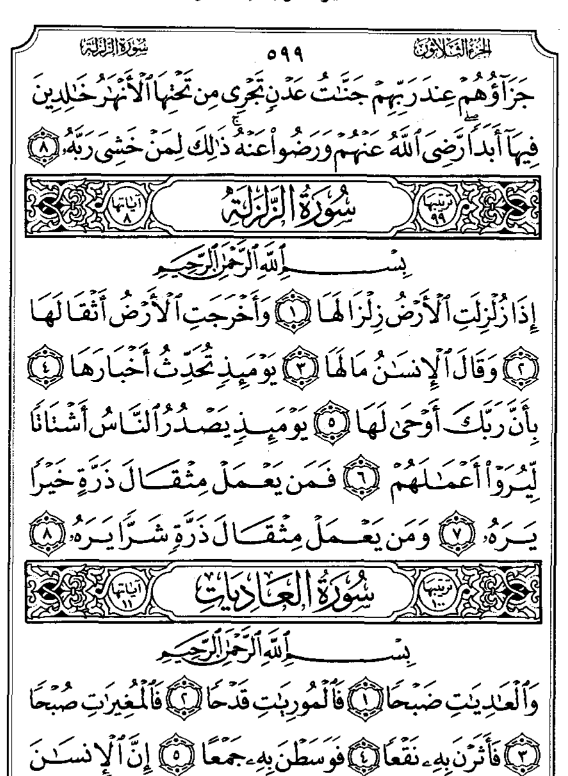
(١-٨) ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ○ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ○ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ○ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ○ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ○ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ ○ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ○ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ يخبر تعالى عما يكون يوم القيامة، وأن الأرض تتزلزل وترجف وترتج، حتى يسقط ما عليها من بناء وعَلَم[3].

فتندك جبالها، وتُسوَّى تلالها، وتكون قاعًا صفصفًا لا عوج فيه ولا أمت.

﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أي: ما في بطنها من الأموات والكنوز.

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ إذا رأى ما عراها من الأمر العظيم مستعظمًا لذلك: ﴿مَا لَهَا﴾؟ أي: أيُّ شيء عرض لها؟.

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ﴾ الأرض ﴿أَخْبَارَهَا﴾ أي: تشهد على العاملين بما عملوا على ظهرها من خير وشر، فإن الأرض من جملة الشهود الذين يشهدون على العباد بأعمالهم.



ذٰلك ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [أي:] وأمرها أن تخبر بما عمل عليها، فلا تعصي[4] لأمره.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾ من موقف القيامة حين يقضي الله بينهم ﴿أَشْتَاتًا﴾ أي: فرقًا متفاوتين.

﴿لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: ليريهم الله ما عملوا من الحسنات والسيئات، ويريهم جزاءه موفرًا.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ○ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ وهٰذا شامل عام للخير والشر كله، لأنه إذا رأى مثقال الذرة التي هي أحقر الأشياء، [وجوزي عليها] فما فوق ذٰلك من باب أولى وأحرى، كما قال تعالى:

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا﴾، ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾.

وهٰذه الآية فيها غاية الترغيب في فعل الخير ولو قليلًا، والترهيب من فعل الشر ولو حقيرًا.

---

(١) في ب: بما أوجب عليه. (٢) في ب: الزلزلة. (٣) في ب: ومَعْلَم. (٤) كذا في ب، وفي أ: ولا ستعصي.

تفسير سورة العاديات

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١-١١) ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۝ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۝ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۝ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ أقسم الله تبارك وتعالى بالخيل لما فيها من آيات الله الباهرة ونعمه الظاهرة ما هو معلوم للخلق.

وأقسم [تعالى] بها في الحال التي لا يشاركها [فيه] غيرها من أنواع الحيوانات فقال:

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ أي: العاديات عَدْوًا بليغًا قويًّا، يصدر عنه الضبح، وهو صوت نفسها في صدرها عند اشتداد العَدْو[١].

﴿فَالْمُورِيَاتِ﴾ بحوافرهن ما يطأن عليه من الأحجار ﴿قَدْحًا﴾ أي: تقدح[٢] النار من صلابة حوافرهن [وقوتهن] إذا عدون.

﴿فَالْمُغِيرَاتِ﴾ على الأعداء ﴿صُبْحًا﴾ وهٰذا أمر أغلبيّ، أن الغارة تكون صباحًا.

﴿فَأَثَرْنَ بِهِ﴾ أي: بعدوهن وغارتهن ﴿نَقْعًا﴾ أي: غبارًا.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِ﴾ أي: براكبهن ﴿جَمْعًا﴾ أي: توسطن به جموع الأعداء الذين أغار عليهم.

والمقسم عليه قوله: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ أي: لمنوع للخير الذي عليه لربه[٣].

فطبيعة [الإنسان] وجبلته أن نفسه لا تسمح بما عليه من الحقوق، فتؤديها كاملة موفرة، بل طبيعتها الكسل والمنع لما عليه من الحقوق المالية والبدنية إلا من هداه الله وخرج عن هٰذا الوصف إلى وصف السماح بأداء الحقوق.

﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ أي: إن الإنسان على ما يعرف من نفسه من المنع والكند لشاهد بذٰلك لا يجحده ولا ينكره، لأن ذٰلك أمر بيِّنٌ واضح.

ويحتمل أن الضمير عائد إلى الله تعالى أي: إن العبد لربه لكنود، والله شهيد على ذٰلك، ففيه الوعيد والتهديد الشديد لمن هو لربه كنود، بأن الله عليه شهيد.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: الإنسان ﴿لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾ أي: المال ﴿لَشَدِيدٌ﴾ أي: كثير الحب للمال.

وحبه لذٰلك، هو الذي أوجب له ترك الحقوق الواجبة عليه، قدم شهوة نفسه على حق[٤] ربه، وكلُّ هٰذا لأنه قصر نظره على هٰذه الدار وغفل عن الآخرة.

ولهٰذا قال - حاثًّا له على خوف يوم الوعيد -:

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ أي: هلَّا يعلم هٰذا المغتر ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ أي: أخرج الله الأموات من قبورهم لحشرهم ونشورهم.

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: ظهر وبان [ما فيها و]ما استتر في الصدور من كمائن الخير والشر، فصار السر علانية والباطن ظاهرًا، وبان على وجوه الخلق نتيجة أعمالهم.

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ أي: مطلع على أعمالهم الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية ومجازيهم عليها.

وخص خُبره[٥] بذٰلك اليوم، مع أنه خبير بهم في كل وقت، لأن المراد بذلك، الجزاء بالأعمال[٦] الناشىء عن علم الله واطلاعه.

تفسير سورة القارعة

[وهي] مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١-١١) ﴿الْقَارِعَةُ ۝ مَا الْقَارِعَةُ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ۝ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾.

﴿الْقَارِعَةُ﴾ من أسماء يوم القيامة سميت بذٰلك، لأنها تقرع الناس وتزعجهم بأهوالها.

ولهٰذا عظم أمرها وفخمه بقوله: ﴿الْقَارِعَةُ ۝ مَا الْقَارِعَةُ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ﴾ من شدة الفزع والهول، ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ أي: كالجراد المنتشر الذي يموج بعضه في بعض، والفراش: هي الحيوانات التي تكون في الليل، يموج بعضها ببعض لا تدري أين توجه.

فإذا أوقد لها نار تهافتت إليها لضعف إدراكها، فهٰذه حال الناس أهل العقول.

---

(١) في ب: عَدْوها. (٢) في ب: تنقدح. (٣) في ب: لله عليه. (٤) في ب: على رضا ربه. (٥) في ب: خبرهم. (٦) في ب: المراد بهذا الجزاء على الأعمال.

وأما الجبال الصم الصلاب فتكون ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ أي: كالصوف المنفوش الذي بقي ضعيفًا جدًّا تطير به أدنى ريح.

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾.

ثم بعد ذٰلك تكون هباء منثورًا، فتضمحل ولا يبقى منها شيء يشاهد، فحينئذ تنصب الموازين وينقسم الناس قسمين: سعداء وأشقياء.

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: رجحت حسناته على سيئاته ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ في جنات النعيم.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بأن لم تكن له حسنات تقاوم سيئاته، ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ أي: مأواه ومسكنه النار التي من أسمائها الهاوية، تكون له بمنزلة الأم الملازمة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾.

وقيل: إن معنى ذٰلك فأم دماغه هاوية في النار أي: يلقى في النار على رأسه.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾ وهٰذا تعظيم لأمرها، ثم فسرها بقوله هي: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ أي: شديدة الحرارة قد زادت حرارتها على حرارة نار الدنيا سبعين ضعفًا نستجير بالله منها.

تفسير سورة ألهاكم التكاثر

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١-٨) ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ○ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ○ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ○ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ○ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ○ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ○ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ○ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ يقول تعالى موبخًا عباده عن اشتغالهم عما خلقوا له من عبادته وحده لا شريك له، ومعرفته والإنابة إليه وتقديم محبته على كل شيء:

﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ عن ذلك المذكور ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ولم يذكر المتكاثر به ليشمل ذٰلك كل ما يتكاثر به المتكاثرون، ويفتخر به المفتخرون من التكاثر في الأموال، والأولاد، والأنصار، والجنود، والخدم، والجاه، وغير ذٰلك مما يقصد منه مكاثرة كل واحد للآخر، وليس المقصود به الإخلاص لله تعالى[(١)].

فاستمرت غفلتكم ولهوتكم [وتشاغلكم] ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فانكشف لكم حينئذ الغطاء، ولٰكن بعدما تعذر عليكم استئنافه.

الجزء الثلاثون — ٦٠٠ — سورة القارعة

وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ (١١)

سُورَةُ ٱلْقَارِعَةِ — ترتيبها ١٠١ — آياتها ١١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ (١) مَا ٱلْقَارِعَةُ (٢) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ (٦) فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ (٨) فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌۢ (١١)

سُورَةُ ٱلتَّكَاثُرِ — ترتيبها ١٠٢ — آياتها ٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ (٨)

ودل قوله: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ أن البرزخ دار مقصودٌ منها النفوذ إلى الدار الباقية[(٢)]، لأن الله سماهم زائرين ولم يسمهم مقيمين.

فدل ذٰلك على البعث والجزاء بالأعمال[(٣)]، في دار باقية غير فانية، ولهٰذا توعدهم بقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ○ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ○ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: لو تعلمون ما أمامكم علمًا يصل إلى القلوب، لما ألهاكم التكاثر ولبادرتم إلى الأعمال الصالحة.

ولٰكن عدم العلم الحقيقي صيَّركم إلى ما ترون.

﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ أي: لتردن القيامة فلترون الجحيم التي أعدها الله للكافرين.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: رؤية بصرية كما قال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾.

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ الذي تنعمتم به في دار

(١) في ب: وليس المقصود منه وجه الله. (٢) في ب: الآخرة. (٣) في ب: على الأعمال.

الدنيا، هل قمتم بشكره وأديتم حق الله فيه ولم تستعينوا به على معاصيه، فينعمكم نعيمًا أعلى منه وأفضل.

أم اغتررتم به ولم تقوموا بشكره؟ بل ربما استعنتم به على معاصي الله فيعاقبكم على ذلك قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ الآية.

تفسير سورة والعصر

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١-٣) ﴿وَالْعَصْرِ ○ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ○ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ أقسم تعالى بالعصر الذي هو الليل والنهار، محل أفعال العباد وأعمالهم أن كل إنسان خاسر، والخاسر ضد الرابح.

والخسار مراتب متعددة متفاوتة:

قد يكون خسارًا مطلقًا كحال من خسر الدنيا والآخرة، وفاته النعيم واستحق الجحيم.

وقد يكون خاسرًا من بعض الوجوه دون بعض، ولهذا عمم الله الخسار لكل إنسان إلا من اتصف بأربع صفات:

الإيمان بما أمر الله بالإيمان به، ولا يكون الإيمان بدون العلم، فهو فرع عنه لا يتم إلا به.

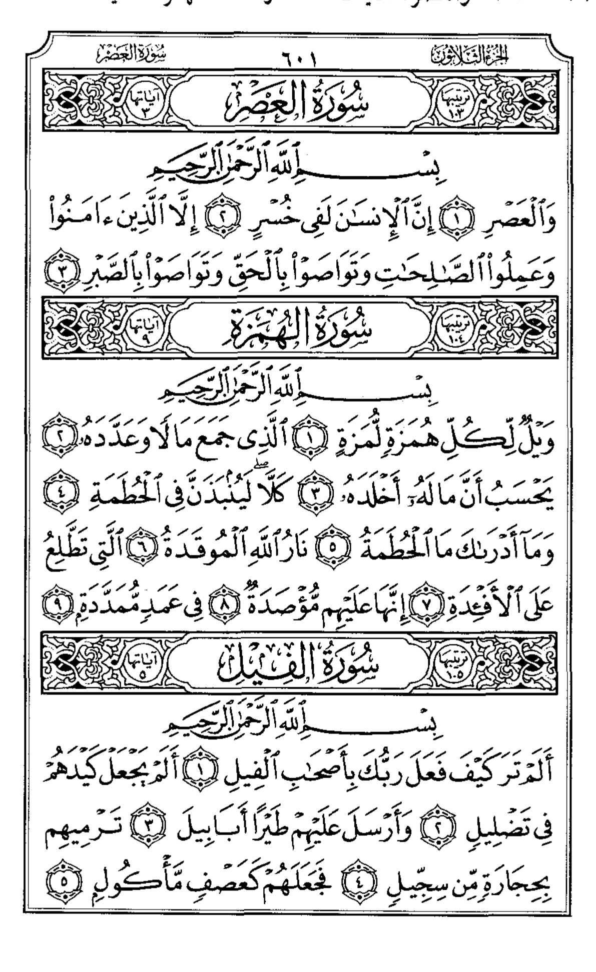
والعمل الصالح، وهذا شامل لأفعال الخير كلها: الظاهرة والباطنة المتعلقة بحق الله وحق عباده[1]، الواجبة والمستحبة.

والتواصي بالحق الذي هو الإيمان والعمل الصالح، أي: يوصي بعضهم بعضًا بذلك، ويحثه عليه ويرغبه فيه.

والتواصي بالصبر على طاعة الله وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة.

فبالأمرين الأولين يكمل الإنسان[2] نفسه وبالأمرين الأخيرين يكمّل غيره.

وبتكميل الأمور الأربعة يكون الإنسان قد سلم من الخسار، وفاز بالربح [العظيم].



تفسير سورة الهمزة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١-٩) ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ○ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ○ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ○ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ○ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ○ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ○ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ○ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ○ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾.

﴿وَيْلٌ﴾ أي: وعيد ووبال وشدة عذاب ﴿لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ الذي يهمز الناس بفعله ويلمزهم بقوله، فالهماز: الذي يعيب الناس ويطعن عليهم بالإشارة والفعل، واللماز: الذي يعيبهم بقوله.

ومن صفة هذا الهماز اللماز أنه لا هَمَّ له سوى جمع المال

(١) في ب: بحقوق الله وحقوق عباده. (٢) في ب: العبد.

وتعديده والغبطة به، وليس له رغبة في إنفاقه في طرق الخيرات وصلة الأرحام ونحو ذٰلك.

﴿يَحْسَبُ﴾ بجهله ﴿أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ في الدنيا، فلذٰلك كان كده وسعيه كله في تنمية ماله الذي يظن أنه ينمي عمره.

ولم يدر أن البخل يقصف الأعمار ويخرب الديار، وأن البر يزيد في العمر.

﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ﴾ أي: ليطرحن ﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ ○ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾ تعظيم لها وتهويل لشأنها.

ثم فسرها بقوله:

﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ التي وقودها الناس والحجارة ﴿ٱلَّتِى﴾ من شدتها ﴿تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ أي: تنفذ من الأجساد إلى القلوب.

ومع هٰذه الحرارة البليغة هم محبوسون فيها، قد أيسوا من الخروج منها.

ولهٰذا قال: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ أي: مغلقة ﴿فِى عَمَدٍ﴾ من خلف الأبواب ﴿مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ لئلا يخرجوا منها.

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾.

[نعوذ بالله من ذٰلك ونسأله العفو والعافية].

تفسير سورة الفيل

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١-٥) ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ○ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ○ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ○ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ○ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾ أي: أما رأيت من قدرة الله وعظيم شأنه، ورحمته بعباده، وأدلة توحيده، وصدق رسوله محمدٍ ﷺ، ما فعله الله بأصحاب الفيل، الذين كادوا بيته الحرام وأرادوا إخرابه.

فتجهزوا لأجل ذٰلك، واستصحبوا معهم الفيلة لهدمه، وجاءوا بجمع لا قِبَلَ للعرب به من الحبشة واليمن.

فلما انتهوا إلى قرب مكة ولم يكن بالعرب مدافعة، وخرج أهل مكة من مكة خوفًا على أنفسهم منهم، أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل، أي: متفرقة تحمل حجارة محماة من سجيل.

فرمتهم بها، وتتبعت قاصيهم ودانيهم، فخمدوا وهمدوا، وصاروا كعصف مأكول، وكفى الله شرهم ورد كيدهم في نحورهم، [وقصتهم معروفة مشهورة].

وكانت تلك السنة التي ولد فيها رسول الله ﷺ، فصارت من جملة إرهاصات دعوته ومقدمات[1] رسالته، فللّه الحمد والشكر.

تفسير سورة لإيلاف قريش

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١-٤) ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ○ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ○ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ○ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ قال كثير من المفسرين: إن الجار والمجرور متعلق بالسورة التي قبلها أي: فعلنا ما فعلنا بأصحاب الفيل لأجل قريش وأمنهم، واستقامة مصالحهم، وانتظام رحلتهم في الشتاء لليمن، والصيف للشام لأجل التجارة والمكاسب.

فأهلك الله من أرادهم بسوء، وعظَّم أمر الحرم وأهله في قلوب العرب حتى احترموهم، ولم يعترضوا لهم في أي سفر أرادوا.

ولهٰذا أمرهم الله بالشكر فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ أي: ليوحدوه ويخلصوا له العبادة.

﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ فرغد الرزق والأمن من المخاوف من أكبر النعم الدنيوية الموجبة لشكر الله تعالى.

فلك اللهم الحمد والشكر على نعمك الظاهرة والباطنة.

وخصّ الله بالربوبية البيت[2] لفضله وشرفه، وإلا فهو رب كل شيء.

تفسير سورة الماعون

[وهي] مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١-٧) ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ○ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ○ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ○ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ○ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ○ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ○ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ يقول تعالى ذامًّا لمن ترك حقوقه وحقوق عباده:

---

(١) في ب: أدلة. (٢) في ب: الربوبية بالبيت.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ أي: بالبعث والجزاء، فلا يؤمن بما جاءت به الرسل.

﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ أي: يدفعه بعنف وشدة، ولا يرحمه لقساوة قلبه؛ ولأنه لا يرجو ثوابًا ولا يخشى[1] عقابًا.

﴿وَلَا يَحُضُّ﴾ غيره ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ ومن باب أولى أنه بنفسه لا يطعم المسكين.

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ أي: الملتزمون[2] لإقامة الصلاة ولٰكنهم ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أي: مضيعون لها تاركون لوقتها مفوتون لأركانها[3].

وهٰذا لعدم اهتمامهم بأمر الله حيث ضيعوا الصلاة، التي هي أهم الطاعات وأفضل القربات، والسهو عن الصلاة، هو الذي يستحق صاحبه الذم واللوم[4].

وأما السهو في الصلاة، فهٰذا يقع من كل أحد حتى من النبي ﷺ.

ولهٰذا وصف الله هٰؤلاء بالرياء والقسوة، وعدم الرحمة، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ أي: يعملون الأعمال لأجل رئاء الناس.

﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ أي: يمنعون إعطاء الشيء الذي لا يضر إعطاؤه على وجه العارية أو الهبة، كالإناء والدلو والفأس، ونحو ذٰلك، مما جرت العادة ببذلها، والسماحة به[5].

فهٰؤلاء - لشدة حرصهم - يمنعون الماعون، فكيف بما هو أكثر منه.

وفي هٰذه السورة الحث على إكرام[6] اليتيم والمساكين، والتحضيض على ذٰلك، ومراعاة الصلاة والمحافظة عليها، وعلى الإخلاص [فيها و]في جميع الأعمال.

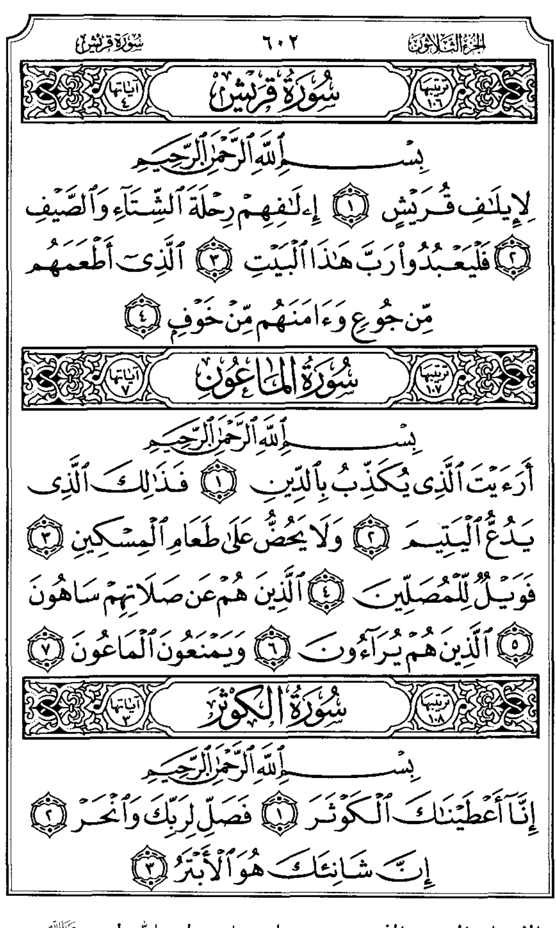
والحث على [فعل المعروف و]بذل الأمور الخفيفة كعارية الإناء والدلو والكتاب ونحو ذٰلك، لأن الله ذم من لم يفعل ذٰلك، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الكوثر

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١-٣) ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ○ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ○ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ممتنًا عليه: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ أي: الخير الكثير


الجزء الثلاثون ٦٠٢ سورة قريش

سُورَةُ قُرَيْشٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

سُورَةُ الْمَاعُونِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

سُورَةُ الْكَوْثَرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

والفضل الغزير الذي من جملته ما يعطيه الله لنبيه ﷺ يوم القيامة من النهر الذي يقال له: «الكوثر».

ومن الحوض[7] طوله شهر وعرضه شهر، ماؤه أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل، آنيته كنجوم[8] السماء في كثرتها واستنارتها، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا.

ولما ذكر منته عليه أمره بشكرها فقال:

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ خصّ هاتين العبادتين بالذكر لأنهما من أفضل العبادات وأجلّ القربات.

ولأن الصلاة تتضمن الخضوع [في] القلب والجوارح لله، وتنقلها في أنواع العبودية.

وفي النحر تقرب إلى الله بأفضل ما عند العبد من النحائر، وإخراج للمال الذي جبلت النفوس على محبته والشح به.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي: مبغضك وذامك ومنتقصك ﴿هُوَ

(١) في ب: يخاف. (٢) كذا في ب، وفي أ: الذين ملتزمون. (٣) في ب: مُخلون بأركانها. (٤) في ب: الذم والوعيد. (٥) في ب: ببذله والسماح به. (٦) في ب: إطعام. (٧) كذا في ب، وفي أ: ومن الحوض الذي يقال له: الكوثر. (٨) في ب: عدد نجوم السماء.

﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾ أي: المقطوع من كل خير مقطوع العمل مقطوع الذكر.

وأما محمد ﷺ فهو الكامل حقًّا، الذي له الكمال الممكن في حق المخلوق من رفع الذكر وكثرة الأنصار والأتباع ﷺ.

تفسير سورة الكافرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١-٦) ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ أي: قل للكافرين معلنًا ومصرحًا ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: تبرَّأْ مما كانوا يعبدون من دون الله ظاهرًا وباطنًا.

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ لعدم إخلاصكم لله في عبادته[1]، فعبادتكم له المقترنة بالشرك لا تسمى عبادة.

ثم كرر ذٰلك ليدل الأول على عدم وجود الفعل، والثاني على أن ذٰلك قد صار وصفًا لازمًا.

ولهٰذا ميز بين الفريقين وفصل بين الطائفتين فقال:

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ كما قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾، ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

تفسير سورة النصر

وهي مدنية[2]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

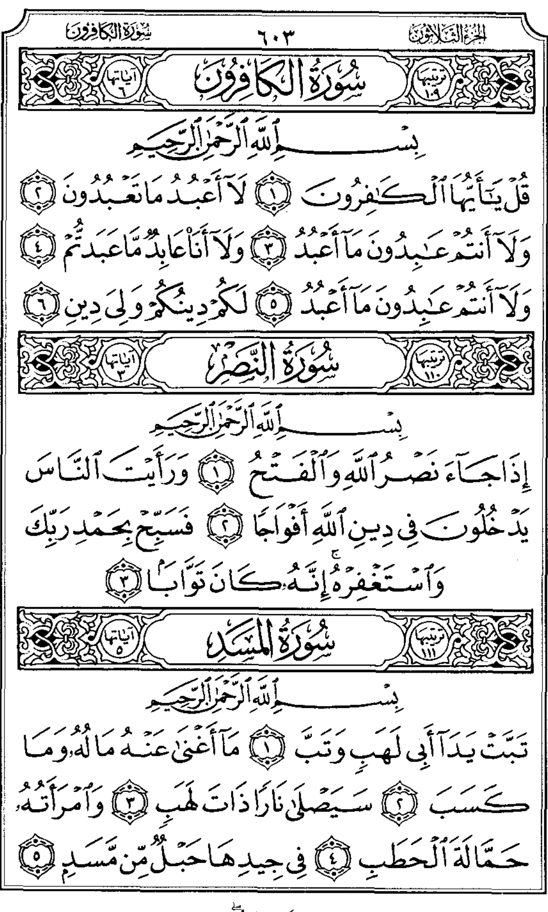
(١-٣) ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ في هٰذه السورة الكريمة بشارة وأمر لرسوله عند حصولها، وإشارة وتنبيه على ما يترتب على ذٰلك.

فالبشارة هي البشارة بنصر الله لرسوله، وفتحه مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجًا، بحيث يكون كثير منهم من أهله وأنصاره، بعد أن كانوا من أعدائه، وقد وقع هٰذا المبشر به.

وأما الأمر بعد حصول النصر والفتح، فأمر الله رسوله أن يشكر ربه على ذٰلك، ويسبح بحمده ويستغفره.

وأما الإشارة فإن في ذٰلك إشارتين:

إشارة لأن يستمر النصر لهذا الدين[3] ويزداد عند حصول التسبيح بحمد الله واستغفاره من رسوله، فإن هٰذا من الشكر



الجزء الثلاثون ٦٠٣ سورة الكافرون

سُورَةُ الكَافِرُونَ (ترتيبها ١٠٩ آياتها ٦)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

سُورَةُ النَّصْرِ (ترتيبها ١١٠ آياتها ٣)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾

سُورَةُ المَسَدِ (ترتيبها ١١١ آياتها ٥)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾

والله يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

وقد وجد ذٰلك في زمن الخلفاء الراشدين وبعدهم في هٰذه الأمة، لم يزل نصر الله مستمرًّا، حتى وصل الإسلام إلى ما لم يصل إليه دين من الأديان، ودخل فيه ما لم يدخل في غيره، حتى حدث من الأمة من مخالفة أمر الله ما حدث، فابتلاهم الله[4] بتفرق الكلمة وتشتت الأمر، فحصل ما حصل.

[ومع هٰذا] فلهٰذه الأمة وهٰذا الدين من رحمة الله ولطفه ما لا يخطر بالبال أو يدور في الخيال.

وأما الإشارة الثانية فهي الإشارة إلى أن أجل رسول الله ﷺ قد قَرُب ودنا، ووجه ذٰلك أن عمره عمر فاضل أقسم الله به.

وقد عهد أن الأمور الفاضلة تختم بالاستغفار، كالصلاة والحج وغير ذٰلك.

فَأَمْرُ الله لرسوله بالحمد والاستغفار في هٰذه الحال إشارة إلى أن أجله قد انتهى، فليستعد ويتهيأ للقاء ربه، ويختم عمره بأفضل ما يجده، صلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) في ب: إخلاصكم في عبادتكم لله. (٢) في ب: وهي مكية. (٣) في ب: إشارة أن النصر يستمر للدين. (٤) في ب: فابتلوا.

فكان ﷺ يتأول القرآن ويقول ذٰلك في صلاته، يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي».

تفسير سورة تبت

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١-٥) ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ○ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ○ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ○ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ○ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ أبو لهب هو عم النبي ﷺ، وكان شديد العداوة [والأذية] للنبي ﷺ، فلا فيه دين ولا حمية للقرابة - قبّحه الله -.

فذمَّه الله بهٰذا الذم العظيم الذي هو خزي عليه إلى يوم القيامة فقال:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ أي: خسرت يداه وشقي ﴿وَتَبَّ﴾ فلم يربح.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ﴾ الذي كان عنده وأطغاه ولا ماكسبه فلم يرد عنه شيئًا من عذاب الله إذ نزل به.

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أي: ستحيط به النار من كل جانب هو ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾.

وكانت أيضًا شديدة الأذية لرسول الله ﷺ، تتعاون هي وزوجها على الإثم والعدوان، وتلقي الشر وتسعى غاية ما تقدر عليه في أذية الرسول ﷺ، وتجمع على ظهرها من الأوزار بمنزلة من يجمع حطبًا، قد أعد له في عنقه حبلًا ﴿مِّن مَّسَدٍ﴾ أي: من ليف، أو أنها تحمل في النار الحطب على زوجها متقلدة في عنقها حبلًا من مسد.

وعلى كل، ففي هٰذه السورة آية باهرة من آيات الله.

فإن الله أنزل هٰذه السورة وأبو لهب وامرأته لم يهلكا.

وأخبر أنهما سيعذبان في النار ولا بد، ومن لازم ذٰلك أنهما لا يسلمان. فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة.

تفسير سورة الإخلاص

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١-٤) ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ○ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ○ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ○ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ قولًا جازمًا به معتقدًا له عارفًا بمعناه.

﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي: قد انحصرت فيه الأحدية، فهو الأحد المنفرد بالكمال الذي له الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والأفعال المقدسة، الذي لا نظير له ولا مثيل.

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ أي: المقصود في جميع الحوائج.

فأهل العالم العلوي والسفلي مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونه حوائجهم ويرغبون إليه في مهماتهم، لأنه الكامل في أوصافه، العليم الذي قد كمل في علمه، الحليم الذي قد كمل في حلمه، الرحيم الذي [كمل في رحمته، الذي] وسعت رحمته كل شيء، وهٰكذا سائر أوصافه.

ومن كماله أنه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ لكمال غناه ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ لا في أسمائه ولا في أوصافه، ولا في أفعاله تبارك وتعالى.

فهٰذه السورة مشتملة على توحيد الأسماء والصفات.

تفسير سورة الفلق

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١-٥) ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ○ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ○ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ○ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ○ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ متعوذًا: ﴿أَعُوذُ﴾ أي: ألجأ وألوذ وأعتصم ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، أي: فالق الحب والنوى، وفالق الإصباح.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ وهٰذا يشمل جميع ما خلق الله من إنس وجن وحيوانات، فيستعاذ بخالقها من الشر الذي فيها.

ثم خص بعدما عمّ فقال:

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أي: من شر ما يكون في الليل حين يغشى الناس، وتنتشر فيه كثير من الأرواح الشريرة والحيوانات المؤذية.

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ أي: ومن شر السواحر اللاتي يستعن على سحرهن بالنفث في العقد التي يعقدنها على السحر.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ والحاسد هو الذي يحب زوال النعمة عن المحسود فيسعى في زوالها بما يقدر عليه من الأسباب.

فاحتيج إلى الاستعاذة بالله من شره وإبطال كيده.

ويدخل في الحاسد العاين؛ لأنه لا تصدر العين إلا من حاسد شرير الطبع خبيث النفس.

فهٰذه السورة تضمنت الاستعاذة من جميع أنواع الشر عمومًا وخصوصًا.

ودلَّت على أن السحر له حقيقة يخشى من ضرره ويستعاذ بالله منه، [ومن أهله].

تفسير سورة الناس

وهي مدنية(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١-٦) ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ○ مَلِكِ النَّاسِ ○ إِلَٰهِ النَّاسِ ○ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ○ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ○ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ وهٰذه السورة مشتملة على الاستعاذة برب الناس ومالكهم وإلٰههم، من الشيطان الذي هو أصل الشرور كلها ومادَّتها الذي من فتنته وشره أنه يوسوس في صدور الناس، فيحسن [لهم] الشر ويريهم إياه في صورة حسنة وينشط إرادتهم لفعله.

ويقبِّح لهم الخير ويثبطهم عنه ويريهم إياه في صورة غير صورته.

وهو دائمًا بهٰذه الحال يوسوس ويخنس، أي: يتأخر إذا ذكر العبد ربه، واستعان به على دفعه.

فينبغي له أن [يستعين و]يستعيذ ويعتصم بربوبية الله للناس كلهم.

وأن الخلق كلهم داخلون تحت الربوبية والملك، فكل دابة هو آخذ بناصيتها، وبألوهيته التي خلقهم لأجلها، فلا تتم لهم إلا بدفع شر عدوهم، الذي يريد أن يقتطعهم عنها ويحول بينهم وبينها، ويريد أن يجعلهم من حزبه ليكونوا من أصحاب السعير.

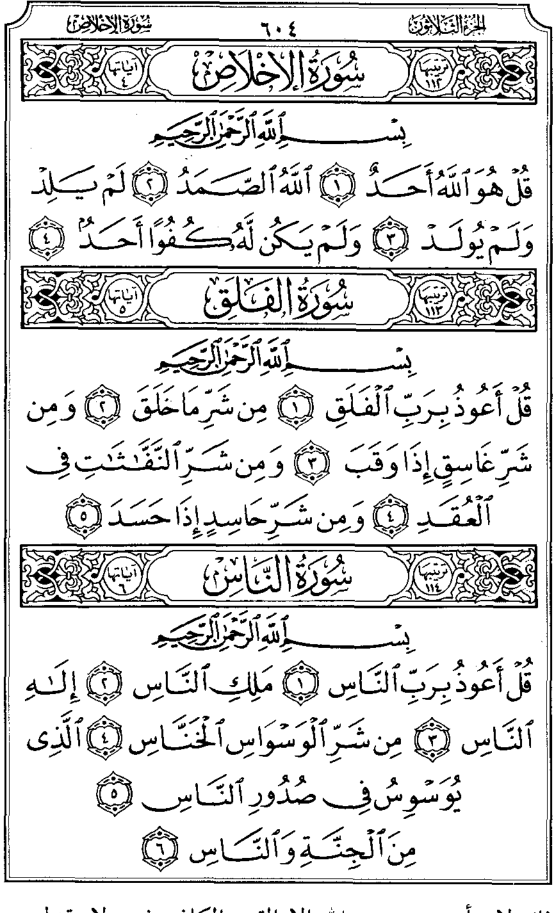
والوسواس كما يكون من الجن يكون من الإنس.

ولهٰذا قال: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾.

والحمد لله رب العالمين أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا.

ونسأله تعالى أن يتم نعمته، وأن يعفو عنا ذنوبًا لنا حالت(٢) بيننا وبين كثير من بركاته وخطايا وشهوات ذهبت بقلوبنا عن تدبر آياته.

ونرجوه ونأمل منه أن لا يحرمنا خير ما عنده بشرّ ما عندنا،



الجزء الثلاثون ٦٠٤ سورة الإخلاص

سُورَةُ الإِخْلَاصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾

سُورَةُ الفَلَقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

سُورَةُ النَّاسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾

فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، ولا يقنط من رحمته إلا القوم الضالون.

وصلى الله وسلم على رسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، صلاة وسلامًا دائمين متواصلين أبد الأوقات، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

تم تفسير كتاب الله بعونه، وحسن توفيقه، على يد جامعه، وكاتبه «عبد الرحمٰن بن ناصر بن عبد الله» المعروف بابن سعدي، غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين، وذلك في غرة ربيع الأول من سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وألف من هجرة محمد ﷺ(٣).

---

(١) عدلت بخط مغاير في ب إلى: مكية. (٢) في ب: ذنوبنا التي حالت.

(٣) في ب: ووقع النقل في شعبان ١٣٤٥، ربنا تقبل منا واعف إنك أنت الغفور الرحيم.

الملاحـــــق

١ - أصول وكليات:من أصول التفسير وكلياته لا يستغني عنها المفسر للقرآن.

٢- تفسير الآيات الذي اختلفت فيها النسختان.



أصول وكليات
من أصول التفسير وكلياته لا يستغني عنها المفسر للقرآن.[1]

النكرةُ في سياق النفي، أو سياق النهي، أو الاستفهام، أو سياق الشرط، تَعمُّ، وكذلك المفرد المضاف يعم، وأمثلة ذلك كثيرة.

فمتى وجدت نكرة واقعة بعد المذكورات، أو وجدت مفردًا مضافًا إلى معرفة، فأثبت جميع ما دخل في ذلك اللفظ، ولا تعتبر سبب النزول وحده، فإن «العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب».

وينبغي أن تنزل جميع الحوادث والأفعال الواقعة، والتي لا تزال تحدث، على العمومات القرآنية، فبذلك تعرف أن القرآن تبيانٌ لكل شيء، وأنه لا يحدث حادث، ولا يستجد أمر من الأمور، إلا وفي القرآن بيانه وتوضيحه.

ومن أصوله أن الألف واللام الداخلة على الأوصاف، وعلى أسماء الأجناس، تُفيدُ استغراق جميع ما دخلت عليه من المعاني.

ومن كليات القرآن، أنه يدعو إلى توحيد الله ومعرفته، بذكر أسماء الله، وأوصافه، وأفعاله الدالة على تفرده بالوحدانية، وأوصاف الكمال، وإلى أنه الحق، وعبادته هي الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، ويبين نقص كل ما عُبدَ من دون الله من جميع الوجوه.

ويدعو إلى صحة ما جاء به الرسول محمد ﷺ وصدقه، ببيان إحكامه، وتمامه، وصدق إخباراته كلها، وحسن أحكامه. ويبين ما كان عليه الرسول ﷺ، من الكمال البشري الذي لا يلحقه فيه أحدٌ من الأولين والآخرين، ويتحداهم بأن يأتوا بمثل ما جاء به، إن كانوا صادقين.

ويُقرر ذلك بشهادته تعالى بقوله وفعله وإقراره إياه، وتصديقه له بالحجة والبرهان، وبالنصر والظهور، وبشهادة أهل العلم المنصفين. ويقابل بين ما جاء به من الحق في أخباره وأحكامه، وبين ما كان عليه أعداؤه، والمكذبون به، من الكذب في أخبارهم، والباطل في أحكامهم، كما يقرر ذلك بالمعجزات المتنوعة.

ويقرر الله المعاد بذكر كمال قدرته، وخلقِه للسموات والأرض، اللتين هما أكبر من خلق الناس، وبأن الذي بدأ الخلق قادر على إعادته من باب أولى، وبأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى. ويذكر أيضًا أيامه في الأمم، ووقوع المثلات التي شاهدها الناس في الدنيا، وأنها نموذج من جزاء الآخرة.

ويدعو جميع المبطلين من الكفار والمشركين والملحدين بذكر محاسن الدين، وأنه يهدي للتي هي أقوم، في عقائده وأخلاقه وأعماله، وبيان ما لله من العظمة والربوبية، والنعم العظيمة. وأن من تفرد بالكمال المطلق، والنعم كلها، هو الذي لا تصلح العبادة إلا له، وأن ما عليه المبطلون، إذا مُيِّز وحقق وُجد شرًا وباطلًا، وعواقبه وخيمة.

ومن أصول التفسير: إذا فهمتَ ما دلَّت عليه الآيات الكريمة من المعاني مطابقة وتضمنًا، فاعلم أن لوازم هذه المعاني، وما لاتتم إلا به، وشروطها وتوابعها، تابعةٌ لذلك المعنى فما لا يتم الخبر إلا به، فهو تابعٌ للخبر، وما لايتم الحكم إلا به، فهو تابعٌ للحكم، وأنَّ الآيات التي يُفهم منها التعارض والتناقض، ليس فيها تناقض ولا تعارض، بل يجب حمل كل منها على الحالة المناسبة اللائقة بها. وأن حذف المتعلقات، من مفعولات وغيرها، يدل على تعميم المعنى، لأن هذا من أعظم فوائد الحذف، وأنه لا يجوز حذفُ ما لا يدل عليه السياق اللفظي، والقرينة الحالية، كما أن الأحكام المقيدة بشروط أو صفات تدل على أن تلك القيود، لابد منها في ثبوت الحكم.

إذا أمر الله بشيء كان ناهيًا عن ضده، وإذا نهى عن شيء كان آمرًا بضده، وإذا أثنى على نفسه بنفي شيء من النقائص؛ كان إثباتًا للكمال المنافي لذلك النقص. وكذلك إذا أثنى على رسله وأوليائه ونزههم عن شيء من النقائص، فهو مدح لهم بما يضاد ذلك النقص، ومثله نفي النقائص عن دار النعيم، يدل على إثبات ضد ذلك.

ومن الكليات: أنه إذا وضح الحق وظهر ظهورًا جليًّا، لم يبق للمجادلات العلمية والمعارضات العملية محل، بل تبطل المعارضات، وتضمحل المجادلات.

ما نفاه القرآن؛ فإما أن يكون غير موجود، أو أنه موجود، ولكنه غير مفيد ولا نافع.

الموهوم لا يدفع المعلوم، والمجهول لا يعارض

(١) هذه الخاتمة جعلها الشيخ - رحمه الله - في آخر الجزء الخامس لما طبع في حياته، وقد جعلتها في خاتمة التفسير.

المحقق، وما بعد الحق إلا الضلال.

ذكر الله في القرآن الإيمان والعمل الصالح في مواضع كثيرة رتب عليهما من الجزاء العاجل والآجل والآثار الحميدة شيئًا كثيرًا، فالإيمان هو: التصديق الجازم، بما أمر الله ورسوله بالتصديق به، المتضمن لأعمال الجوارح.

والعمل الصالح هو: القيام بحقوق الله، وحقوق عباده. وكذلك أمر الله بالتقوى، ومدح المتقين، ورتب على التقوى حصول الخيرات، وزوال المكروهات. والتقوى الكاملة: امتثال أمر الله وأمر رسوله، واجتناب نهيهما وتصديق خبرهما.

وإذا جمع الله بين التقوى والبر ونحوه، كانت التقوى اسمًا لتوقي جميع المعاصي، والبر اسمًا لفعل الخيرات، وإذا أفرد أحدهما، دخل فيه الآخر.

وذكر الله الهدى المطلوب في مواضع كثيرة، وأثنى على المهتدي، وأخبر أن الهدى بيده، وأمرنا بطلبه منه، وبالسعي في كل سبب يحصل الهدى، وذلك شامل لهداية العلم والعمل.

فالمهتدي: من عرف الحق، وعمل به، وضده: الغي والضلال، فمن عرف الحق ولم يعمل به فهو الغاوي، ومن جهل الحق فهو الضال.

أمر الله بالإحسان، وأثنى على المحسنين، وذكر ثوابهم المتنوع في آيات كثيرة. وحقيقة الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وأن تبذل ما تستطيعه من النفع المالي والبدني والقولي إلى المخلوقين.

وأمر بالإصلاح وأثنى على المصلحين، وأخبر أنه لا يضيع ثوابهم وأجرهم.

والإصلاح هو: أن تسعى في إصلاح عقائد الناس وأخلاقهم، وجميع أحوالهم، بحيث تكون على غاية ما يمكن، من الصلاح. وأيضًا يشمل إصلاح الأمور الدينية، والأمور الدنيوية، وإصلاح الأفراد والجماعات، وضد هذا: الفساد.

والإفساد، قد نهى عنه، وذم المفسدين، وذكر عقوباتهم المتعددة، وأخبر أنه لا يصلح أعمالهم الدينية والدنيوية.

أثنى الله على اليقين، وعلى الموقنين، وأنهم هم المنتفعون بالآيات القرآنية، والآيات الأفقية.

واليقين أخص من العلم، فهو: العلم الراسخ، المثمر للعمل والطمأنينة.

أمر الله بالصبر، وأثنى على الصابرين، وذكر جزاءهم العاجل والآجل في عدة آيات، نحو تسعين موضعًا، وهو يشمل أنواعه الثلاثة: الصبر على طاعة الله، حتى يؤديها كاملة من جميع الوجوه. والصبر عن محارم الله حتى ينهى نفسه الأمارة بالسوء عنها. والصبر على أقدار الله المؤلمة، فيتلقاها بصبر وتسليم، غير متسخط في قلبه ولا بدنه ولا لسانه.

وكذلك أثنى الله على الشكر، وذكر ثواب الشاكرين، وأخبر أنهم أرفع الخلق في الدنيا والآخرة.

وحقيقة الشكر هو: الاعتراف بجميع نعم الله، والثناء على الله بها، والاستعانة بها على طاعة المنعم.

وذكر الله الخوف والخشية، في مواضع كثيرة. أمر به، وأثنى على أهله، وذكر ثوابهم، وأنهم المنتفعون بالآيات، التاركون للمحرمات.

وحقيقة الخوف والخشية: أن يخاف العبدُ مقامه بين يدي الله، ومقامه عليه، فينهى نفسه بهذا الخوف عن كل ما حرم الله.

والرجاء: أن يرجو العبد رحمة الله العامة، ورحمته الخاصة به. فيرجو قبول ما تفضل الله عليه به من الطاعات، وغفران ما تاب منه من الزلات، ويعلق رجاءه بربه في كل حال من أحواله.

وذكر الله الإنابة في مواضع كثيرة، وأثنى على المنيبين، وأمر بالإنابة إليه. وحقيقة الإنابة: انجذاب القلب إلى الله، في كل حالة من أحواله، ينيب إلى ربه عند النعماء بشكره، وعند الضراء بالتضرع إليه، وعند مطالب النفوس الكثيرة بكثرة دعائه في جميع مهماته، وينيب إلى ربه، باللهج بذكره في كل وقت.

[والإنابة أيضًا: الرجوع إلى الله، بالتوبة من جميع المعاصي، والرجوع إليه في جميع أعماله وأقواله، فيعرضها على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، فتكون الأعمال والأقوال، موزونة بميزان الشرع][1].

أمر تعالى بالإخلاص، وأثنى على المخلصين، وأخبر أنه لا يقبل إلا العمل الخالص.

وحقيقة الإخلاص: أن يقصد العامل بعمله وجه الله وحده وثوابه. وضده: الرياء، والعمل للأغراض النفسية.

نهى الله عن التكبر، وذم الكبر والمتكبرين، وأخبر عن عقوباتهم العاجلة والآجلة.

والتكبر هو: رد الحق، واحتقار الخلق، وضد ذلك:

(١) ما بين القوسين في هامش النسخة بخط مغاير لخط الشيخ - رحمه الله -.

التواضع، فقد أمر به، وأثنى على أهله، وذكر ثوابهم، فهو قبول الحق ممن قاله، وأن لا يحتقر الخلق، بل يرى فضلهم، ويحب لهم ما يحب لنفسه.

العدل هو: أداء حقوق الله، وحقوق العباد.

والظلم: عكسه، فهو يشمل ظلم العبد لنفسه بالمعاصي والشرك وظلم العباد في دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

الصدق هو: استواء الظاهر والباطن في الاستقامة على الصراط المستقيم، والكذب بخلاف ذلك.

حدود الله هي: محارمه، وهي التي يقول فيها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ ويراد بها ما أباحه الله وحلله، وقدره، وفرضه، فيقول فيها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾.

الأمانة هي: الأمور التي يؤتمن عليها العبد. فيشمل ذلك أداء حقوق الله، وخصوصًا الخفية، وحقوق خلقه كذلك.

العهود والعقود، يدخل فيها التي بينه وبين الله، وهو: القيام بعبادة الله مخلصًا له الدين، والتي بينه وبين العباد من المعاملات ونحوها.

الحكمة والقوام: فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي.

والإسراف والتبذير: مجاوزة الحد في الإنفاق. والتقتير والبخل عكسه؛ التقصير في النفقات الواجبة.

المعروف: اسم جامع لكل ما عرف حسنه ونفعه شرعًا وعقلًا، والمنكر عكسه.

الاستقامة: لزوم طاعة الله، وطاعة رسوله على الدوام.

مرض القلب هو: اعتلاله، وهو نوعان: مرض شكوك في الحق، ومرض شهوة للأمور المحرمة.

النفاق: إظهار الخير، وإبطان الشر، فيدخل فيه النفاق الاعتقادي والنفاق العملي.

القرآن، كله مُحكمٌ، وأُحكمت آياته من جهة موافقتها للحكمة، وأن أخباره أعلى درجات الصدق، وأحكامه في غاية الحسن. وكله متشابهٌ من جهة اتفاقه في البلاغة والحسن، وتصديق بعضه لبعض وكمال اتفاقه.

ومنه محكم ومتشابه، من جهة أن متشابهه ما كان فيه إجمال أو احتمال لبعض المعاني. ومحكمه، واضح مبين صريح في معناه، إذا رُدَّ إليه المتشابه، اتفق الجميعُ، واستقامت معانيه.

معية الله التي ذكرها في كتابه، نوعان:

معية العلم والإحاطة، وهي: المعية العامة، فإنه مع عباده أينما كانوا.

ومعية خاصة، وهي: معيته مع خواص خلقه بالنصرة، واللطف، والتأييد.

الدعاء والدعوة، يشمل دعاء العبادة، فيدخل فيه كل عبادةٍ أمر الله بها ورسوله.

ودعاء المسألة، وهو: سؤال الله جلب المنافع، ودفع المضار.

الطيبات: اسم جامع لكل طيب نافع، من العقائد، والأخلاق، والأعمال، والمآكل، والمشارب والمكاسب. والخبيث: ضد ذلك.

وقد يراد بالخبيث: الرديء، وبالطيب: الخيار كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾[١].

النفقة، تشمل النفقة الواجبة: كالزكاة، والكفارة، ونفقة النفس، والعائلة، والمماليك، والنفقة المستحبة: كالنفقة في جميع طرق الخير.

التوكل على الله والاستعانة به، قد أمر الله بها، وأثنى على المتوكلين في آيات كثيرة.

وحقيقة ذلك: قوة اعتماد القلب على الله في جلب المصالح، ودفع المضار الدينية والدنيوية، مع الثقة به في حصول ذلك.

العقل الذي مدحه الله وأثنى على أهله، وأخبر أنهم هم المنتفعون بالآيات. هو: الذي يفهم، ويعقل الحقائق النافعة، ويعمل بها، ويعقل صاحبه عن الأمور الضارة، ولذلك قيل له: حِجْر، ولُب، ونُهى، لأنه يحجر صاحبه وينهاه عما يضره.

العلم هو: معرفة الهدى بدليله، فهو معرفة المسائل النافعة المطلوبة، ومعرفة أدلتها وطرقها، التي تهدي إليها.

والعلم النافع هو: العلم بالحق والعمل به، وضده: الجهل.

لفظ الأمة في القرآن على أربعة أوجه: يراد به الطائفة من الناس وهو الغالب. ويراد به المدة، ويراد به الدين والملة، ويراد به الإمام في الخير.

لفظ استوى في القرآن على ثلاثة أوجه: إن عُدِّيَ بـ«على» كان معناه العلو والارتفاع، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

وإن عُدِّي بـ«إلى» فمعناه قصد، كقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾.

---

(١) لم يتم الشيخ - رحمه الله - الآية، وبتمامها يتضح مراده، وتمامها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾

وإن لم يُعَدَّ بشيء، فمعناه «كَمُل»، كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾.

التوبة: ورد في آيات كثيرة الأمر بها، ومدح التائبين وثوابهم، وهي: الرجوع عما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا، إلى ما يحبه الله ظاهرًا وباطنًا.

الصراط المستقيم، الذي أمر الله بلزومه وأثنى على المستقيمين عليه، هو: الطريق المعتدل الموصل إلى رضوان الله وثوابه، وهو متابعة النبي ﷺ في أقواله وأفعاله وكل أحواله ﷺ.

الذكر لله الذي أمر به، وأثنى على الذاكرين، وذكر جزاءهم العاجل والآجل هو: عند الإطلاق، يشمل جميع ما يقرب إلى الله: من عقيدة، أو فكر نافع، أو خلق جميل، أو عمل قلبي أو بدني، أو ثناء على الله، أو تسبيح ونحوه، أو تعلم أحكام الشرع الأصولية والفروعية، أو ما يعين على ذلك، فكله داخل في ذكر الله.

فصل

وقد تكرر كثير من أسماء الله الحسنى في القرآن بحسب المناسبات، والحاجة داعية إلى التنبيه إلى معانيها الجامعة فنقول:

قد تكرر اسم (**الرب**) في آيات كثيرة.

و«الرب» هو: المربي جميع عباده، بالتدبير، وأصناف النعم، وأخص من هذا، تربيته لأصفيائه بإصلاح قلوبهم، وأرواحهم، وأخلاقهم، ولهذا كثر دعاؤهم له بهذا الاسم الجليل، لأنهم يطلبون منه هذه التربية الخاصة.

(**الله**) هو المألوه المعبود، ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، لما اتصف به من صفات الألوهية التي هي صفات الكمال.

(**الملك، المالك**) الذي له الملك، فهو الموصوف بصفة الملك، وهي صفات العظمة والكبرياء، والقهر والتدبير، الذي له التصرف المطلق، في الخلق، والأمر، والجزاء، وله جميع العالم، العلوي والسفلي، كلهم عبيد ومماليك، ومضطرون إليه.

(**الواحد الأحد**) وهو الذي توحَّد بجميع الكمالات، بحيث لا يشاركه فيها مشارك، ويجب على العبيد توحيده، عقدًا، وقولًا، وعملًا، بأن يعترفوا بكماله المطلق، وتفرده بالوحدانية، ويفردوه بأنواع العبادة.

(**الصمد**) وهو الذي تقصده الخلائق كلها، في جميع حاجاتها، وأحوالها وضروراتها، لما له من الكمال المطلق، في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله.

(**العليم الخبير**) وهو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والإسرار والإعلان، وبالواجبات، والمستحيلات، والممكنات، وبالعالم العلوي، والسفلي، وبالماضي، والحاضر، والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء.

(**الحكيم**) وهو الذي له الحكمة العليا في خلقه، وأمره، الذي أحسن كل شيء خلقه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فلا يخلق شيئًا عبثًا، ولا يشرع شيئًا سدى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك: فيحكم بين عباده، في شرعه، وفي قدره، وجزائه.

والحكمة: وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها.

(**الرحمٰن، الرحيم، البر، الكريم، الجواد، الرؤوف، الوهاب**).

هذه الأسماء تتقارب معانيها، وتدل كلها على اتصاف الرب بالرحمة، والبر، والجود، والكرم، وعلى سعة رحمته ومواهبه، التي عم بها جميع الوجود، بحسب ما تقتضيه حكمته، وخص المؤمنين منها بالنصيب الأوفر، والحظ الأكمل، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الآية.

والنعم والإحسان، كله من آثار رحمته، وجوده، وكرمه، وخيرات الدنيا والآخرة، كلها من آثار رحمته.

(**السميع**) لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات.

(**البصير**) الذي يبصر كل شيء وإن رق وصغر، فيبصر دبيب النملة السوداء، في الليلة الظلماء، على الصخرة الصماء. ويبصر ما تحت الأرضين السبع، كما يبصر ما فوق السماوات السبع. وأيضًا سميع بصير، بمن يستحق الجزاء بحسب حكمته، والمعنى الأخير يرجع إلى الحكمة.

(**الحميد**) في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فله من الأسماء أحسنها، ومن الصفات أكملها، ومن الأفعال أتمها وأحسنها، فإن أفعاله تعالى دائرة بين الفضل والعدل.

(**المجيد، الكبير، العظيم، الجليل**) وهو الموصوف بصفات المجد، والكبرياء، والعظمة، والجلال، الذي هو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأجل وأعلى، وله التعظيم والإجلال، في قلوب أوليائه وأصفيائه، قد ملئت قلوبهم من تعظيمه، وإجلاله، والخضوع له، والتذلل لكبريائه.

(العفو، الغفور، الغفار) الذي لم يزل، ولا يزال بالعفو معروفًا، وبالغفران والصفح عن عباده، موصوفًا، كل أحد مضطر إلى عفوه ومغفرته، كما هو مضطر إلى رحمته وكرمه، وقد وعد بالمغفرة والعفو، لمن أتى بأسبابها، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾.

(التواب) الذي لم يزل يتوب على التائبين، ويغفر ذنوب المنيبين، فكل من تاب إلى الله توبة نصوحًا، تاب الله عليه، فهو التائب على التائبين: أولًا بتوفيقهم للتوبة والإقبال بقلوبهم إليه، وهو التائب عليهم بعد توبتهم، قبولًا لها، وعفوًا عن خطاياهم.

(القُدُّوسُ، السَّلَامُ) أي: المعظم المنزه عن صفات النقص كلها، وأن يماثله أحد من الخلق، فهو المتنزه عن جميع العيوب، والمتنزه عن أن يقاربه أو يماثله، أحد في شيء من الكمال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾.

فالقدوس كالسلام، ينفيان كل نقص من جميع الوجوه، ويتضمنان الكمال المطلق من جميع الوجوه، لأن النقص إذا انتفى، ثبت الكمال كله.

(العلي، الأعلى) وهو الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه، علو الذات، وعلو القدر والصفات، وعلو القهر، فهو الذي على العرش استوى، وعلى الملك احتوى، وبجميع صفات العظمة والكبرياء والجلال والجمال وغاية الكمال اتصف، وإليه فيها المنتهى.

(العزيز) الذي له العزة كلها: عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع، فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليقة، وخضعت لعظمته.

(القوي، المتين) هو في معنى العزيز.

(الجبار) هو بمعنى العلي الأعلى، وبمعنى القهار، وبمعنى «الرؤوف» الجابر للقلوب المنكسرة، وللضعيف العاجز، ولمن لاذ به، ولجأ إليه.

(المتكبر) عن السوء، والنقص والعيوب، لعظمته وكبريائه.

(الخالق، البارىء، المصور) الذي خلق جميع الموجودات، وبرأها، وسواها بحكمته، وصورها بحمده وحكمته، وهو لم يزل، ولا يزال على هذا الوصف العظيم.

(المؤمن) الذي أثنى على نفسه بصفات الكمال، وبكمال الجلال والجمال، الذي أرسل رسله، وأنزل كتبه بالآيات والبراهين. وصدق رسله بكل آية وبرهان، يدل على صدقهم وصحة ما جاؤوا به.

(المهيمن) المطلع على خفايا الأمور، وخبايا الصدور، الذي أحاط بكل شيء علمًا.

(القدير) كامل القدرة. بقدرته أوجد الموجودات، وبقدرته دبرها، وبقدرته سوَّاها وأحكمها. وبقدرته يحيي ويميت، ويبعث العباد للجزاء، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، الذي إذا أراد شيئًا قاله له: «كن فيكون». وبقدرته يقلب القلوب، ويصرفها على ما يشاء ويريد.

(اللطيف) الذي أحاط علمه بالسرائر والخفايا، وأدرك الخبايا والبواطن، والأمور الدقيقة، اللطيف بعباده المؤمنين، الموصل إليهم مصالحهم بلطفه وإحسانه، من طرق لا يشعرون بها، فهو بمعنى «الخبير» وبمعنى «الرؤوف».

(الحسيب) هو العليم بعباده، كافي المتوكلين، المجازي لعباده بالخير والشر، بحسب حكمته وعلمه بدقيق أعمالهم وجليلها.

(الرقيب) المطلع على ما أكنته الصدور، القائم على كل نفس بما كسبت، الذي حفظ المخلوقات وأجراها، على أحسن نظام وأكمل تدبير.

(الحفيظ) الذي حفظ ما خلقه، وأحاط علمه بما أوجده، وحفظ أولياءه، من وقوعهم في الذنوب والهلكات، ولطف بهم في الحركات والسكنات، وأحصى على العباد أعمالهم، وجزاءها.

(المحيط) بكل شيء علمًا، وقدرة، ورحمة، وقهرًا.

(القهار) لكل شيء، الذي خضعت له المخلوقات، وذلت لعزته وقوته، وكمال اقتداره.

(المقيت) الذي أوصل إلى كل موجود ما به يقتات. وأوصل إليها أرزاقها وصرفها كيف يشاء، بحكمته وحمده.

(الوكيل) المتولي لتدبير خلقه بعلمه وكمال قدرته وشمول حكمته. الذي تولى أولياءه، فيسرهم لليسرى، وجنبهم العسرى، وكفاهم الأمور. فمن اتخذه وكيلًا كفاه ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

(ذو الجلال والإكرام) أي: ذو العظمة والكبرياء، وذو الرحمة، والجود، والإحسان العام والخاص. المكرم لأوليائه وأصفيائه، الذين يجلونه، ويعظمونه، ويحبونه.

(الودود) الذي يحب أنبياءه ورسله، وأتباعهم، ويحبونه، فهو أحب إليهم من كل شيء، قد امتلأت قلوبهم من محبته، ولهجت ألسنتهم بالثناء عليه، وانجذبت أفئدتهم إليه وُدًّا، وإخلاصًا، وإنابة من جميع الوجوه.

(الفتاح) الذي يحكم بين عباده، بأحكامه الشرعية، وأحكامه القدرية، وأحكام الجزاء. الذي فتح بلطفه بصائر الصادقين، وفتح قلوبهم لمعرفته، ومحبته، والإنابة إليه، وفتح لعباده أبواب الرحمة، والأرزاق المتنوعة، وسبب لهم الأسباب، التي ينالون بها خير الدنيا والآخرة ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾.

(الرزاق) لجميع عباده، فما من دابة في الأرض، إلا على الله رزقها. ورزقه لعباده نوعان:

رزق عام، شمل البر والفاجر، والأولين والآخرين، وهو رزق الأبدان.

ورزق خاص وهو رزق القلوب، وتغذيتها بالعلم والإيمان.

والرزق الحلال الذي يعين على صلاح الدين، وهذا خاص بالمؤمنين، على مراتبهم منه، بحسب ما تقتضيه حكمته ورحمته.

(الحكم، العدل) الذي يحكم بين عباده في الدنيا والآخرة، بعدله وقسطه. فلا يظلم مثقال ذرة، ولا يُحمِّل أحدًا وزر أحد، ولا يجازي العبد بأكثرمن ذنبه ويؤدي الحقوق إلى أهلها، فلا يدع صاحب حق إلا أوصل إليه حقه، وهو العدل في تدبيره وتقديره ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

(جامع الناس) ليوم لا ريب فيه، وجامع أعمالهم وأرزاقهم، فلا يترك منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وجامع ما تفرق واستحال من الأموات الأولين والآخرين، بكمال قدرته، وسعة علمه.

(الحَيُّ، القَيُّومُ) كامل الحياة والقائم بنفسه، القيوم لأهل السموات والأرض، القائم بتدبيرهم وأرزاقهم، وجميع أحوالهم، فـ«الحي»: الجامع لصفات الذات، و«القيوم»: الجامع لصفات الأفعال.

(النور) نور السموات والأرض، الذي نوَّر قلوب العارفين بمعرفته، والإيمان به، ونَوَّر أفئدتهم بهدايته، وهو الذي أنار السموات والأرض، بالأنوار التي وضعها، وحجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

(بديع السموات والأرض) أي: خالقهما ومبدعهما، في غاية ما يكون من الحسن والخلق البديع، والنظام العجيب المحكم.

(القابض، الباسط) يقبض الأرزاق والأرواح، ويبسط الأرزاق والقلوب، وذلك تبع لحكمته ورحمته.

(المعطي، المانع) لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، فجميع المصالح والمنافع، منه تطلب، وإليه يرغب فيها، وهو الذي يعطيها لمن يشاء، ويمنعها من يشاء، بحكمته ورحمته.

(الشهيد) أي: المطلع على جميع الأشياء، سمع جميع الأصوات، خفيها وجليها. وأبصر جميع الموجودات، دقيقها وجليلها، صغيرها وكبيرها، وأحاط علمه بكل شيء، الذي شهد لعباده، وعلى عباده، بما عملوه.

(المبدئ، المعيد) قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، ابتدأ خلقهم؛ ليبلوهم أيهم أحسن عملًا، ثم يعيدهم، ليجزي الذين أحسنوا بالحسنى، ويجزي المسيئين بإساءتهم، وكذلك، هو الذي يبدأ إيجاد المخلوقات شيئًا فشيئًا، ثم يعيدها كل وقت.

(الفعال لما يريد) وهذا من كمال قوته، ونفوذ مشيئته وقدرته، أن كل أمر يريده يفعله بلا ممانع، ولا معارض، وليس له ظهير ولا عوين، على أيِّ أمر يكون، بل إذا أراد شيئًا قال له: «كن فيكون». ومع أنه الفعال لما يريد، فإرادته تابعة لحكمته وحمده، فهو موصوف بكمال القدرة، ونفوذ المشيئة، وموصوف بشمول الحكمة، لكل ما فعله ويفعله.

(الغني، المغني) فهو الغني بذاته، الذي له الغنى التام المطلق، من جميع الوجوه، والاعتبارات لكماله، وكمال صفاته، فلا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنيًا، لأن غناه من لوازم ذاته، كما لا يكون إلا خالقًا، قادرًا، رازقًا، محسنًا، فلا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه، فهو الغني، الذي بيده خزائن السماوات والأرض، وخزائن الدنيا والآخرة، المغني جميع خلقه، غنى عامًا، والمغني لخواص خلقه، بما أفاض على قلوبهم، من المعارف الربانية، والحقائق الإيمانية.

(الحليم) الذي يَدِرُّ على خلقه النِّعمَ الظاهرة والباطنة، مع معاصيهم وكثرة زلاتهم، فيحلم عن مقابلة العاصين بعصيانهم. ويستعتبهم كي يتوبوا، ويمهلهم كي ينيبوا.

(الشاكر، الشكور) الذي يشكر القليل من العمل، ويغفر الكثير من الزلل. ويضاعف للمخلصين أعمالهم بغير حساب، ويشكر الشاكرين، ويذكر من ذكره، ومن تقرب إليه بشيء من الأعمال الصالحة، تقرب الله منه أكثر.

(القريب، المجيب) أي: هو تعالى، القريب من كل أحد، وقربه تعالى نوعان: قرب عام من كل أحد، بعلمه، وخبرته، ومراقبته، ومشاهدته، وإحاطته. وقرب خاص من عابديه، وسائليه، ومحبيه، وهو قرب لا تدرك له حقيقة، وإنما تعلم آثاره، من لطفه بعبده، وعنايته به، وتوفيقه وتسديده، ومن

آثاره الإجابة للداعين، والإنابة[1] للعابدين، فهو المجيب إجابة عامة، للداعين، مهما كانوا، وأين كانوا، وعلى أي حال كانوا كما وعدهم بهذا، الوعد المطلق، وهو المجيب إجابة خاصة، للمستجيبين له، المنقادين لشرعه، وهو المجيب أيضًا للمضطرين، ومن انقطع رجاؤهم من المخلوقين، وقوي تعلقهم به، طمعًا، ورجاءً، وخوفًا.

(الكافي) عباده جميع ما يحتاجون، ويضطرون إليه، الكافي كفاية خاصة من آمن به، وتوكل عليه، واستمد منه حوائج دينه ودنياه.

(الأول، والآخر، والظاهر، والباطن).

قد فسرها النبي ﷺ تفسيرًا جامعًا واضحًا، فقال يخاطب ربه: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء».

(الواسع) الصفات، والنعوت، ومتعلقاتها، بحيث لا يُحْصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، واسع العظمة، والسلطان، والملك، واسع الفضل، والإحسان، عظيم الجود والكرم.

(الهادي، الرشيد) أي: الذي يهدي ويرشد عباده إلى جميع المنافع، وإلى دفع المضار، ويعلمهم ما لا يعلمون، ويهديهم لهداية التوفيق والتسديد، ويلهمهم التقوى، ويجعل قلوبهم منيبة إليه، منقادة لأمره.

وللرشيد معنى، بمعنى الحكيم فهو: الرشيد في أقواله وأفعاله، وشرائعه كلها خير، ورشد، وحكمة، ومخلوقاته مشتملة على الرشد.

(الحق) في ذاته وصفاته. فهو واجب الوجود، كامل الصفات والنعوت، وجوده من لوازم ذاته، ولا وجود لشيء من الأشياء إلا به، فهو الذي لم يزل، ولا يزال بالجلال والجمال والكمال موصوفًا، ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفًا.

فقوله حق، وفعله حق، ولقاؤه حق، ورسله حق، وكتبه حق، ودينه هو الحق، وعبادته وحده لا شريك له هي الحق وكل شيء ينسب إليه فهو حق، ذلك بأن الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، وأن الله هو العلي الكبير.

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ﴾، ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وصلى الله وسلم على محمد، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم إلى يوم الدين.

قال ذلك، وكتبه، العبد الفقير إلى ربه «عبد الرحمٰن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدي». غفر الله له ولوالديه، ومشايخه، وأحبابه، وجميع المسلمين. آمين

---

(١) كذا في الأصل ولعلها: (الإثابة) والله أعلم.

ملحق بتفسير الآيات الذي اختلفت فيها النسختان

(٢٣٨، ٢٣٩) ثم قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۞ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ يأمر تعالى بالمحافظة ﴿عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ عمومًا، وعلى ﴿الصَّلاةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ وهي العصر خصوصًا.

والمحافظة عليها: أداؤها بوقتها، وشروطها، وأركانها. وخشوعها، وجميع ما لها، من واجب ومستحب.

وبالمحافظة على الصلوات، تحصل المحافظة على سائر العبادات، وتفيد النهي عن الفحشاء والمنكر، خصوصًا إذا أكملها كما أمر بقوله: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾، أي: ذليلين مخلصين خاشعين، فإن القنوت دوام الطاعة مع الخشوع.

وقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ حذف المتعلق، ليعم الخوف من العدو، والسبع، وفوات ما يتضرر العبد بفوته، فصلوا ﴿رِجَالًا﴾ ماشين على أرجلكم.

﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ على الخيل والإبل، وسائر المركوبات، وفي هذه الحال، لا يلزمه الاستقبال، فهذه صفة صلاة المعذور بالخوف، فإذا حصل الأمن، صلى صلاة كاملة.

ويدخل في قوله: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ تكميل الصلوات، ويدخل فيه أيضًا، الإكثار من ذكر الله، شكرًا له على نعمة الأمن وعلى نعمة التعليم، لما فيه سعادة العبد.

وفي الآية الكريمة، فضيلة العلم، وأن على من علمه الله ما لم يكن يعلم، الإكثار من ذكر الله.

وفيه الإشعار أيضًا أن الإكثار من ذكره، سبب لتعليم علوم أخر، لأن الشكر مقرون بالمزيد.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

(٢٤٠) اشتهر عند كثير من المفسرين، أن هذه الآية الكريمة، نسختها الآية التي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾، وأن الأمر كان على الزوجة، أن تتربص حولًا كاملًا، ثم نسخ بأربعة أشهر وعشر.

ويجيبون عن تقدم الآية الناسخة، أن ذلك تقدم في الوضع، لا في النزول، لأن شرط الناسخ أن يتأخر عن المنسوخ، وهذا القول لا دليل عليه.

ومن تأمل الآيتين، اتضح له أن القول الآخر في الآية، هو الصواب، وأن الآية الأولى في وجوب التربص أربعة أشهر وعشرًا، على وجه التحتيم على المرأة، وأما في هذه الآية فإنها وصية لأهل الميت، أن يبقوا زوجة ميتهم عندهم، حولًا كاملًا، جبرًا لخاطرها، وبرًّا بميتهم، ولهذا قال: ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم﴾ أي: وصية من الله لأهل الميت، أن يستوصوا بزوجته، ويمتعوها ولا يخرجوها.

فإن رغبت أقامت في وصيتها، وإن أحبت الخروج فلا حرج عليها، ولهذا قال: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ أي: من التجمل واللباس. لكن الشرط، أن يكون بالمعروف، الذي لا يخرجها عن حدود الدين والاعتبار، وختم الآية بهذين الاسمين العظيمين، الدالين على كمال العزة، وكمال الحكمة، لأن هذه أحكام صدرت عن عزته، ودلت على كمال حكمته، حيث وضعها في مواضعها اللائقة بها.

(٢٤١، ٢٤٢) ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ۞ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لما بيّن في الآية السابقة، إمتاع المفارقة بالموت، ذكر هنا أن كل مطلقة، فلها على زوجها، أن يمتعها ويعطيها ما يناسب حاله وحالها، وأنه حق، إنما يقوم به المتقون، فهو من خصال التقوى الواجبة أو المستحبة.

فإن كانت المرأة لم يسم لها صداق، وطلقها قبل الدخول، فتقدم أنه يجب عليه بحسب يساره وإعساره.

وإن كان مسمى لها، فمتاعها نصف المسمى.

وإن كانت مدخولًا بها، صارت المتعة مستحبة، في قول جمهور العلماء.

ومن العلماء من أوجب ذلك، استدلالًا بقوله: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ والأصل في «الحق» أنه واجب، خصوصًا وقد أضافه إلى المتقين، وأصل التقوى واجبة.

فلما بيّن تعالى هذه الأحكام الجليلة بين الزوجين، أثنى على أحكامه وعلى بيانه لها وتوضيحه، وموافقتها للعقول السليمة، وأن القصد من بيانه لعباده، أن يعقلوا عنه ما بينه، فيعقلونها حفظًا، وفهمًا، وعملًا بها، فإن ذلك من تمام عقلها.

(٢٤٣) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: ألم تسمع بهذه القصة العجيبة الجارية على من قبلكم من بني إسرائيل، حيث حل الوباء بديارهم، فخرجوا بهذه الكثرة، فرارًا من الموت، فلم ينجهم الفرار، ولا أغنى عنهم من وقوع ما كانوا يحذرون، فعاملهم بنقيض مقصودهم، وأماتهم الله عن آخرهم، ثم تفضل عليهم، فأحياهم، إما بدعوة نبي، كما قاله كثير من المفسرين، وإما بغير ذلك.

ولكن ذلك بفضله وإحسانه، وهو لا زال فضله على الناس، وذلك موجب لشكرهم لنعم الله بالاعتراف بها وصرفها في مرضاة الله، ومع ذلك فأكثر الناس قد قصروا بواجب الشكر.

وفي هذه القصة، عبرة بأنه على كل شيء قدير، وذلك آية محسوسة على البعث، فإن هذه القصة معروفة منقولة، نقلًا متواترًا عند بني إسرائيل ومن اتصل بهم، ولهذا أتى بها تعالى، بأسلوب الأمر الذي قد تقرر عند المخاطبين.

ويحتمل أن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم خوفًا من الأعداء، وجبنًا عن لقائهم، ويؤيد هذا أن الله ذكر بعدها الأمر بالقتال، وأخبر عن بني إسرائيل أنهم كانوا مخرجين من ديارهم وأبنائهم.

وعلى الإحتمالين فإن فيها ترغيبًا في الجهاد، وترهيبًا من التقاعد عنه، وأن ذلك لا يغني عن الموت شيئًا. ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾.

(٢٤٤، ٢٤٥) ﴿وَقَـٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ○ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ جمع الله بين الأمر بالقتال في سبيله بالمال والبدن لأن الجهاد لا يقوم إلا بالأمرين، وحث على الإخلاص فيه، بأن يقاتل العبد، لتكون كلمة الله هي العليا، فإن الله ﴿سميع﴾ للأقوال، وإن خفيت، ﴿عليم﴾ بما تحتوي عليه القلوب من النيات الصالحة وضدها.

وأيضًا، فإنه إذا علم المجاهد في سبيله، أن الله سميع عليم، هان عليه ذلك، وعلم أنه بعينه ما يتحمل المتحملون من أجله، وأنه لا بد أن يمدهم بعونه ولطفه.

وتأمل هذا الحث اللطيف على النفقة، وأن المنفق قد أقرض الله المليء الكريم، ووعده المضاعفة الكثيرة، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

ولما كان المانع الأكبر من الإنفاق خوف الإملاق، أخبر تعالى أن الغنى والفقر بيد الله، وأنه يقبض الرزق على من يشاء، ويبسطه على من يشاء، فلا يتأخر من يريد الإنفاق خوف الفقر، ولا يظن أنه ضائع، بل مرجع العباد كلهم إلى الله، فيجد المنفقون والعاملون أجرهم عنده مدخرًا، أحوج ما يكونون إليه، ويكون له من الوقع العظيم، ما لا يمكن التعبير عنه.

والمراد بالقرض الحسن: هو ما جمع أوصاف الحسن، من النية الصالحة، وسماحة النفس، بالنفقة، ووقوعها في محلها وأن لا يتبعها المنفق منًّا ولا أذى؛ ولا مبطلًا ومنقصًا.

(٢٤٦) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر القصة. يقص الله تعالى هذه القصة على الأمة، ليعتبروا وليرغبوا في الجهاد، ولا ينكلوا عنه، فإن الصابرين صارت لهم العواقب الحميدة في الدنيا والآخرة، والناكلين خسروا الأمرين.

فأخبر تعالى أن أهل الرأي من بني إسرائيل وأصحاب الكلمة النافذة؛ تراودوا في شأن الجهاد، واتفقوا على أن يطلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكًا؛ لينقطع النزاع بتعيينه، وتحصل الطاعة التامة، ولا يبقى لقائل مقال.

وأن نبيهم خشي أن طلبهم هذا، مجرد كلام لا فعل معه، فأجابوا نبيهم بالعزم الجازم، وأنهم التزموا ذلك التزامًا تامًّا، وأن القتال متعين عليهم، حيث كان وسيلة لاسترجاع ديارهم؛ ورجوعهم إلى مقرهم ووطنهم.

(٢٤٧) وأنه عيّن لهم نبيهم طالوت ملكًا، يقودهم في هذا الأمر الذي لا بد له من قائد يحسن القيادة، وأنهم استغربوا تعيينه لطالوت، وثم من هو أحق منه بيتًا وأكثر مالًا.

فأجابهم نبيهم: أن الله اختاره عليكم؛ بما آتاه الله من قوة العلم بالسياسة؛ وقوة الجسم، اللذين هما آلة الشجاعة والنجدة، وحسن التدبير، وأن الملك ليس بكثرة المال؛ ولا بكون صاحبه ممن كان الملك والسيادة في بيوتهم، فالله يؤتي ملكه من يشاء.

(٢٤٨) ثم لم يكتف ذلك النبي الكريم بإقناعهم بما ذكره؛ من كفاءة طالوت؛ واجتماع الصفات المطلوبة فيه حتى قال لهم: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ﴾ وكان

هذا التابوت قد استولت عليه الأعداء.

فلم يكتفوا بالصفات المعنوية في طالوت، ولا بتعيين الله له على لسان نبيهم، حتى يؤيد ذلك هذه المعجزة، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فحينئذ سلموا وانقادوا.

(٢٤٩) فلما ترأس فيهم طالوت، وجندهم ورتبهم، وفصل بهم إلى قتال عدوهم، وكان قد رأى منهم من ضعف العزائم والهمم، ما يحتاج إلى تمييز الصابر من الناكل، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ تمرون عليه وقت حاجة إلى الماء.

﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي: لا يتبعني؛ لأن ذلك برهان على قلة صبره، ووفور جزعه، ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ لصدقه وصبره، ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ أي: فإنه مسامح فيها.

فلما وصلوا إلى ذلك النهر وكانوا محتاجين إلى الماء، شربوا كلهم منه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ فإنهم صبروا ولم يشربوا.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا﴾ أي: الناكلون أو الذين عبروا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾.

فإن كان القائلون هم الناكلين، فهذا قول يبررون به نكولهم. وإن كان القائلون هم الذين عبروا مع طالوت، فإنه حصل معهم نوع استضعاف لأنفسهم، ولكن شجعهم على الثبات والإقدام أهل الإيمان الكامل حيث قالوا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بعونه وتأييده، ونصره، فثبتوا، وصبروا لقتال عدوهم جالوت وجنوده.

(٢٥٠) ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ﴾ ﷺ ﴿جَالُوتَ﴾ وحصل بذلك الفتح والنصر على عدوهم.

﴿وَآتَاهُ اللَّهُ﴾ أي: داود ﴿الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ النبوة والعلوم النافعة، وآتاه الله الحكمة وفصل الخطاب.

(٢٥١) ثم بين تعالى فائدة الجهاد فقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ باستيلاء الكفرة والفجار، وأهل الشر والفساد.

﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ حيث لطف بالمؤمنين، ودافع عنهم وعن دينهم، بما شرعه وبما قدره.

(٢٥٢) فلما بين هذه القصة قال لرسوله ﷺ: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

ومن جملة الأدلة على رسالته، هذه القصة، حيث أخبر بها وحيًا من الله، مطابقًا للواقع، وفي هذه القصة عبر كثيرة للأمة.

منها: فضيلة الجهاد في سبيله، وفوائده، وثمراته، وأنه السبب الوحيد في حفظ الدين، وحفظ الأوطان، وحفظ الأبدان والأموال، وأن المجاهدين، ولو شقت عليهم الأمور، فإن عواقبهم حميدة كما أن الناكلين، ولو استراحوا قليلًا، فإنهم سيتعبون طويلًا.

ومنها: الانتداب لرياسة من فيه كفاءة، وأن الكفاءة ترجع إلى أمرين: إلى العلم الذي هو علم السياسة والتدبير، وإلى القوة التي ينفذ بها الحق، وأن من اجتمع فيه الأمران فهو أحق من غيره.

ومنها: الاستدلال بهذه القصة على ما قاله العلماء: إنه ينبغي للأمير للجيوش أن يتفقدها عند فصولها، فيمنع من لا يصلح للقتال، من رجال وخيل وركاب، لضعفه، أو ضعف صبره، أو لتخذيله، أو خوف الضرر بصحبته، فإن هذا القسم ضرر محض على الناس.

ومنها: أنه ينبغي عند حضور البأس، تقوية المجاهدين، وتشجيعهم، وحثهم على القوة الإيمانية، والاتكال الكامل على الله، والاعتماد عليه، وسؤال الله التثبيت، والإعانة على الصبر والنصر على الأعداء.

ومنها: أن العزم على القتال والجهاد غير حقيقته، فقد يعزم الإنسان، ولكن عند حضوره، تنحل عزيمته، ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: «أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد».

فهؤلاء الذين عزموا على القتال، وأتوا بكلام يدل على العزم المصمم، لما جاء الوقت، نكص أكثرهم، ويشبه هذا قوله ﷺ: «وأسألك الرضا بعد القضاء»؛ لأن الرضا بعد وقوع القضاء المكروه للنفوس، هو الرضا الحقيقي.

(٢٥٣) وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ يخبر الباري أنه فاوت بين الرسل في الفضائل الجليلة، والتخصيصات الجميلة، بحسب ما من الله به عليهم، وقاموا به من الإيمان الكامل؛ واليقين الراسخ، والأخلاق العالية، والآداب السامية، والدعوة، والتعليم، والنفع العميم.

فمنهم من اتخذه خليلًا، ومنهم من كلمه تكليمًا، ومنهم

من رفعه فوق الخلائق درجات.

وجميعهم لا سبيل لأحد من البشر إلى الوصول إلى فضلهم الشامخ.

وخصَّ عيسى ابن مريم أنه آتاه البينات الدالة على أنه رسول الله حقًّا، وعبده صدقًا، وأن ما جاء به من عند الله كله حق، فجعله يبرىء الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، وكلم الناس في المهد صبيًّا، وأيده بروح القدس، أي: بروح الإيمان.

فجعل روحانيته فائقةً روحانية غيره، فحصل له بذلك القوة والتأييد، وإن كان أصل التأييد بهذه الروح عامًّا لكل مؤمن، بحسب إيمانه، كما قال: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ لكن ما لعيسى أعظم مما لغيره، لهذا خصه الله بالذكر.

وقيل: إن روح القدس - هنا - جبريل، أيده الله بإعانته ومؤازرته، لكن المعنى هو الأول.

ولما أخبر عن كمال الرسل، وما أعطاهم من الفضل والخصائص، وأن دينهم واحد، ودعوتهم إلى الخير واحدة، وكان موجب ذلك ومقتضاه، أن تجتمع الأمم على تصديقهم، والانقياد لهم، لما آتاهم من البينات التي على مثلها يؤمن البشر، لكن أكثرهم انحرفوا عن الصراط المستقيم، ووقع الاختلاف بين الأمم.

فمنعم من آمن، ومنهم من كفر، ووقع لأجل ذلك الاقتتال الذي هو موجب الاختلاف والتعادي، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى، فما اختلفوا، ولو شاء الله أيضًا - بعدما وقع الاختلاف الموجب للاقتتال - ما اقتتلوا.

ولكن حكمته، اقتضت جريان الأمور على هذا النظام بحسب الأسباب، ففي هذه الآية أكبر شاهد على أنه تعالى، يتصرف في جميع الأسباب المقتضية لمسبباتها، وأنه إن شاء أبقاها، وإن شاء منعها، وكلُّ ذلك تبعٌ لحكمته وحده، فإنه فعال لما يريد، فليس لإرادته ومشيئته ممانع ولا معارض ولا معاون.

(٢٥٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يحث الله المؤمنين على النفقات، في جميع طرق الخير؛ لأن حذف المعمول يفيد التعميم ويذكرهم نعمته عليهم بأنه هو الذي رزقهم، ونوع عليهم النعم، وأنه لم يأمرهم بإخراج جميع ما في أيديهم، بل أتى بـ «مِن» الدالة على التبعيض، فهذا مما يدعوهم إلى الإنفاق.

ومما يدعوهم أيضًا إخبارهم أن هذه النفقات، مدخرة عند الله في يوم لا تفيد فيه المعاوضات بالبيع ونحوه، ولا التبرعات، ولا الشفاعات، فكل أحد يقول: ما قدمت لحياتي.

فتنقطع الأسباب كلها، إلا الأسباب المتعلقة بطاعة الله والإيمان به، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾، ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وذلك لأن الله خلقهم لعبادته ورزقهم وعافاهم ليستعينوا بذلك على طاعته، فخرجوا عما خلقهم الله له، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا واستعانوا بنعمه على الكفر والفسوق والعصيان، فلم يبقوا للعدل موضعًا فلهذا حصر الظلم المطلق فيهم.

(٢٥٥) ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ أخبر ﷺ أن هذه الآية أعظم آيات القرآن، لما احتوت عليه من معاني التوحيد والعظمة، وسعة الصفات للباري تعالى.

فأخبر أنه ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي له جميع معاني الألوهية، وأنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو، فألوهية غيره، وعبادة غيره باطلة.

وأنه ﴿ٱلْحَيُّ﴾ الذي له جميع معاني الحياة الكاملة، من السمع والبصر، والقدرة، والإرادة، وغيرها، والصفات الذاتية.

كما أن ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ تدخل فيه جميع صفات الأفعال، لأنه القيوم الذي قام بنفسه، واستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بجميع الموجودات، فأوجدها وأبقاها، وأمدها بجميع ما تحتاج إليه في وجودها وبقائها.

ومن كمال حياته وقيوميته، أنه ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ﴾ أي: نعاس ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ لأن السنة والنوم، إنما يعرضان للمخلوق، الذي يعتريه الضعف، والعجز، والانحلال، ولا يعرضان لذي العظمة والكبرياء والجلال.

وأخبر أنه مالك جميع ما في السماوات والأرض، فكلهم عبيد لله مماليك، لا يخرج أحد منهم عن هذا الطور، ﴿إِن

﴿كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ فهو المالك لجميع الممالك، وهو الذي له صفات الملك والتصرف، والسلطان، والكبرياء.

ومن تمام ملكه أنه لا ﴿يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ﴾ أحدٌ ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ فكل الوجهاء والشفعاء عبيد له مماليك، لا يقدمون على شفاعة حتى يأذن لهم. ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والله لا يأذن لأحد أن يشفع إلا فيمن ارتضى، ولا يرتضي إلا توحيده، واتباع رسله، فمن لم يتصف بهذا، فليس له في الشفاعة نصيب.

ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط، وأنه يعلم ما بين أيدي الخلائق، من الأمور المستقبلة، التي لا نهاية لها ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من الأمور الماضية التي لا حد لها، وأنه لا تخفى عليه خافية ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾.

وأن الخلق لا يحيط أحد بشيء من علم الله ومعلوماته ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ منها وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية، وهو جزء يسير جدًّا مضمحل في علوم الباري ومعلوماته، كما قال أعلم الخلق به - وهم الرسل والملائكة - ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾.

ثم أخبر عن عظمته وجلاله، وأن كرسيه، وسع السماوات والأرض، وأنه قد حفظهما ومن فيهما من العوالم بالأسباب والنظامات، التي جعلها الله في المخلوقات.

ومع ذلك ف ﴿لَا يَـُٔودُهُۥ﴾ أي: يثقله حفظهما، لكمال عظمته، واقتداره، وسعة حكمته في أحكامه.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ بذاته، على جميع مخلوقاته، وهو العلي بعظمة صفاته، وهو العلي الذي قهر المخلوقات، ودانت له الموجودات، وخضعت له الصعاب، وذلت له الرقاب.

﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ الجامع، لجميع صفات العظمة والكبرياء، والمجد والبهاء، الذي تحبه القلوب، وتعظمه الأرواح، ويعرف العارفون أن عظمة كل شيء - وإن جلت عن الصفة - فإنها مضمحلة في جانب عظمة العلي العظيم.

فآية احتوت على هذه المعاني التي هي أجلّ المعاني، يحق أن تكون أعظم آيات القرآن، ويحق لمن قرأها، متدبرًا متفهمًا، أن يمتلىء قلبه من اليقين والعرفان والإيمان، وأن يكون محفوظًا بذلك من شرور الشيطان.

(٢٥٦) ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ هذا بيان لكمال هذا الدين الإسلامي، وأنه لكمال براهينه، واتضاح آياته، وكونه هو دين العقل والعلم، ودين الفطرة والحكمة، ودين الصلاح والإصلاح، ودين الحق والرشد، فلكماله وقبول الفطرة له، لا يحتاج إلى الإكراه عليه؛ لأن الإكراه إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب، ويتنافى مع الحقيقة والحق، أو لما تخفى براهينه وآياته، وإلا فمن جاءه هذا الدين، ورده ولم يقبله، فإنه لعناده.

فإنه قد تبين الرشد من الغي، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة، إذا رده ولم يقبله، ولا منافاة بين هذا المعنى، وبين الآيات الكثيرة الموجبة للجهاد، فإن الله أمر بالقتال ليكون الدين كله لله، ولدفع اعتداء المعتدين على الدين.

وأجمع المسلمون على أن الجهاد ماض مع البر والفاجر، وأنه من الفروض المستمرة الجهاد القولي والجهاد الفعلي.

فمن ظن من المفسرين أن هذه الآية تنافي آيات الجهاد، فجزم بأنها منسوخة فقوله ضعيف، لفظًا ومعنى، كما هو واضح بيّن لمن تدبر الآية الكريمة، كما نبهنا عليه.

ثم ذكر الله انقسام الناس إلى قسمين:

قسم آمن بالله وحده لا شريك له، وكفر بالطاغوت - وهو كل ما ينافي الإيمان بالله من الشرك وغيره -، فهذا قد استمسك بالعروة الوثقى، التي لا انفصام لها، بل هو مستقيم على الدين الصحيح، حتى يصل به إلى الله؛ وإلى دار كرامته.

ويؤخذ القسم الثاني من مفهوم الآية، أن من لم يؤمن بالله، بل كفر به، وآمن بالطاغوت، فإنه هالك هلاكًا أبديًّا، ومعذب عذابًا سرمديًّا.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي: لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، وسميع لدعاء الداعين، وخضوع المتضرعين.

﴿عَلِيمٌ﴾ بما أكنته الصدور، وما خفي من خفايا الأمور، فيجازي كل أحد بحسب ما يعلمه، من نياته وعمله.

(٢٥٧) ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ هذه الآية مترتبة على الآية التي قبلها، فالسابقة هي الأساس، وهذه هي الثمرة.

فأخبر تعالى أن الذين آمنوا بالله، وصدقوا إيمانهم، بالقيام بواجبات الإيمان، وترك كل ما ينافيه، أنه وليهم، يتولاهم بولايته الخاصة، ويتولى تربيتهم، فيخرجهم من ظلمات الجهل والكفر والمعاصي والغفلة والإعراض، إلى نور العلم واليقين والإيمان، والطاعة والإقبال الكامل على ربهم، وينور قلوبهم بما يقذفه فيها من نور الوحي والإيمان، وييسرهم

لليسرى، ويجنبهم العسرى.

وأما الذين كفروا، فإنهم لما تولوا غير وليهم، ولاهم الله ما تولوا لأنفسهم، وخذلهم، ووكلهم إلى رعاية من تولاهم، ممن ليس عنده نفع ولا ضر، فأضلوهم وأشقوهم، وحرموهم هداية العلم النافع والعمل الصالح، وحرموهم السعادة، وصارت النار مثواهم، خالدين فيها مخلدين.

اللهم تولنا فيمن توليت.

(٢٥٨) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يقص الله علينا من أنباء الرسل والسالفين، ما به تتبين الحقائق، وتقوم البراهين المتنوعة على التوحيد.

فأخبر تعالى عن خليله إبراهيم ﷺ، حيث حاج هذا الملك الجبار، وهو نمرذ[١] البابلي، المعطل المنكر لرب العالمين، وانتدب لمقاومة إبراهيم الخليل ومحاجته في هذا الأمر، الذي لا يقبل شكًا، ولا إشكالًا، ولا ريبًا، وهو توحيد الله وربوبيته، الذي هو أجلى الأمور وأوضحها.

ولكن هذا الجبار، غره مُلكه وأطغاه، حتى وصلت به الحال إلى أن نفاه، وحاج إبراهيم الرسول العظيم، الذي أعطاه الله من العلم واليقين، ما لم يعط أحدًا من الرسل، سوى محمد ﷺ.

فقال إبراهيم مناظرًا له: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: هو المنفرد بالخلق والتدبير، والإحياء والإماتة، فذكر من هذا الجنس أظهرها، وهو الإحياء والإماتة، فقال ذلك الجبار مباهتًا: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ وعنى بذلك أني أقتل من أردت قتله، وأستبقي من أردت استبقاءه.

ومن المعلوم أن هذا تمويه وتزوير، وحيدة عن المقصود، وأن المقصود أن الله تعالى هو الذي تفرد بإيجاد الحياة في المعدومات، وردها على الأموات، وأنه هو الذي يميت العباد والحيوانات بآجالها، بأسباب ربطها وبغير أسباب.

فلما رآه الخليل مموهًا تمويهًا، ربما راج على الهمج الرعاع، قال إبراهيم - ملزمًا له بتصديق قوله إن كان كما يزعم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ أي: وقف، وانقطعت حجته، واضمحلت شبهته.

وليس هذا من الخليل انتقالًا من دليل إلى آخر، وإنما هو إلزام لنمرود، بطرد دليله إن كان صادقًا، وأتى بهذا الذي لا يقبل الترويج والتزوير والتمويه.

فجميع الأدلة: السمعية، والعقلية، والفطرية، قد قامت شاهدة بتوحيد الله، معترفة بانفراده بالخلق والتدبير، وأن من هذا شأنه، لا يستحق العبادة إلا هو، وجميع الرسل متفقون على هذا الأصل العظيم، ولم ينكره إلا معاند مكابر، مماثل لهذا الجبار العنيد، فهذا من أدلة التوحيد.

(٢٥٩، ٢٦٠) ثم ذكر أدلة كمال القدرة والبعث والجزاء، فقال: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

هذان دليلان عظيمان، محسوسان في الدنيا قبل الآخرة، على البعث والجزاء، واحدٌ أجراه الله على يد رجل شاك في البعث على الصحيح، كما تدل عليه الآية الكريمة، والآخر على يد خليله إبراهيم.

كما أجرى دليل التوحيد السابق على يده، فهذا الرجل مر على قرية قد دمرت تدميرًا، وخوت على عروشها، قد مات أهلها وخربت عمارتها، فقال - على وجه الشك والاستبعاد -: ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؟، أي: ذلك بعيد، وهي في هذه الحال، يعني: وغيرها مثلها، بحسب ما قام بقلبه تلك الساعة.

فأراد الله رحمته ورحمة الناس، حيث أماته الله مائة عام، وكان معه حمار، فأماته معه، ومعه طعام وشراب، فأبقاهما الله بحالهما كل هذه المدد الطويلة، فلما مضت الأعوام المائة، بعثه الله، فقال: ﴿كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وذلك بحسب ما ظنه، فقال الله: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ والظاهر أن هذه المجاوبة على يد بعض الأنبياء الكرام.

ومن تمام رحمة الله به وبالناس، أنه أراه الآية عيانًا، ليقتنع بها، فبعدما عرف أنه ميت قد أحياه الله، قيل له: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ

---

(١) كذا في الأصل وسيأتي بعد قليل تسميته بـ(نمرود).

طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي: لم يتغير في هذه المدد الطويلة، وذلك من آيات قدرة الله، فإن الطعام والشراب - خصوصًا ما ذكره المفسرون: أنه فاكهة وعصير - لا يلبث أن يتغير، وهذا قد حفظه الله مائة عام، ﴿وَ﴾ قيل له: ﴿انظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ فإذا هو قد تمزق وتفرق، وصار عظامًا نخرة.

﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ أي: نرفع بعضها إلى بعض، ونصل بعضها ببعض، بعدما تفرقت وتمزقت، ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا﴾ بعد الالتئام ﴿لَحْمًا﴾ ثم نعيد فيها الحياة.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ رأي عين لا يقبل الريب بوجه من الوجوه، ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فاعترف بقدرة الله على كل شيء، وصار آية للناس، لأنهم قد عرفوا موته وموت حماره، وعرفوا قضيته، ثم شاهدوا هذه الآية الكبرى، هذا هو الصواب في هذا الرجل.

وأما قول كثير من المفسرين: إن هذا الرجل، مؤمن أو نبي من الأنبياء، إما عزير أو غيره، وأن قوله: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يعني: كيف تعمر هذه القرية بعد أن كانت خرابًا، وأن الله أماته، ليريه ما يعيد لهذه القرية من عمارتها بالخلق، وأنها عمرت في هذه المدة، وتراجع الناس إليها، وصارت عامرة، بعد أن كانت دامرة - فهذا لا يدل عليه اللفظ، بل ينافيه، ولا يدل عليه المعنى.

فأي آية وبرهان، برجوع البلدان الدامرة إلى العمارة، وهذه لم تزل تشاهد، تعمر قرى ومساكن، وتخرب أخرى، وإنما الآية العظيمة في إحيائه بعد موته، وإحياء حماره، وإبقاء طعامه وشرابه، لم يتعفن ولم يتغير.

ثم قوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ صريح في أنه لم يتبين له إلا بعدما شاهد هذه الحال الدالة على كمال قدرته عيانًا.

(٢٦٠) وأما البرهان الآخر، فإن إبراهيم قال طالبًا من الله، أن يريه كيف يحيي الموتى، فقال الله له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ ليزيل الشبهة عن خليله.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿بَلَىٰ﴾ يارب، قد آمنت أنك على كل شيء قدير، وأنك تحيي الموتى، وتجازي العباد، ولكن أريد أن يطمئن قلبي، وأصل إلى درجة عين اليقين.

فأجاب الله دعوته، كرامة له، ورحمة بالعباد، ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ ولم يبين أي الطيور هي، فالآية حاصلة بأي نوع منها، وهو المقصود، ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: ضمهن، واذبحهن، ومزقهن.

﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

ففعل ذلك، وفرق أجزاءهن على الجبال، التي حوله، ودعاهن بأسمائهن، فأقبلن إليه، أي: سريعات، لأن السعي: السرعة، وليس المراد أنهن جئن على قوائمهن، وإنما جئن طائرات، على أكمل ما يكون من الحياة.

وخص الطيور بذلك، لأن إحياءهن أكمل وأوضح من غيرهن.

وأيضًا أزال في هذا كل وهم، ربما يعرض للنفوس المبطلة، فجعلهن متعددات أربعة، ومزقهن جميعًا، وجعلهن على رؤوس الجبال، ليكون ذلك ظاهرًا علنًا، يشاهد من قرب ومن بعد، وأنه نحاهن عنه كثيرًا، لئلا يظن أن يكون عاملًا حيلة من الحيل، وأيضًا أمره أن يدعوهن فجئن مسرعات.

فصارت هذه الآية أكبر برهان على كمال عزة الله وحكمته.

وفيه تنبيه على أن البعث فيه يظهر للعباد كمال عزة الله وحكمته وعظمته وسعة سلطانه، وتمام عدله وفضله.

(٢٦١، ٢٦٢) ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ○ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هذا حث عظيم من الله لعباده في إنفاق أموالهم في سبيله، وهو طريقه الموصل إليه، فيدخل في هذا إنفاقه في ترقية العلوم النافعة، وفي الاستعداد للجهاد في سبيله، وفي تجهز المجاهدين وتجهيزهم، وفي جميع المشاريع الخيرية النافعة للمسلمين.

ويلي ذلك الإنفاق على المحتاجين، والفقراء والمساكين.

وقد يجتمع الأمران، فيكون في النفقة دفع الحاجات، والإعانة على الخير والطاعات، فهذه النفقات مضاعفة، هذه المضاعفة بسبعمائة إلى أضعاف أكثر من ذلك، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ وذلك بحسب ما يقوم بقلب المنفق، من الإيمان، والإخلاص التام، وفي ثمرات نفقته ونفعها، فإن بعض طرق الخيرات يترتب على الإنفاق فيها منافع متسلسلة، ومصالح متنوعة، فكان الجزاء من جنس العمل.

ثم أيضًا ذكر ثوابًا آخر للمنفقين أموالهم في سبيله، نفقة صادرة، مستوفية لشروطها، منتفية موانعها، فلا يتبعون المنفق عليه منًّا منهم عليه، وتعدادًا للنعم، وأذية له، قولية أو فعلية.

فهؤلاء ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ بحسب ما يعلمه منهم، وبحسب نفقاتهم ونفعها، وبفضله الذي لا تناله، ولا تصل إليه صدقاتهم.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فنفى عنهم المكروه

الماضي، بنفي الحزن، والمستقبل بنفي الخوف عليهم، فقد حصل لهم المحبوب، واندفع عنهم المكروه.

(٢٦٣) ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾ ذكر الله أربع مراتب للإحسان: المرتبة العليا: النفقة الصادرة عن نية صالحة، ولم يتبعها المنفق منًّا ولا أذى.

ثم يليها قول المعروف، وهو الإحسان القولي بجميع وجوهه، الذي فيه سرور المسلم، والاعتذار من السائل إذا لم يوافق عنده شيئًا، وغير ذلك من أقوال المعروف.

والثالثة: الإحسان بالعفو والمغفرة، عمن أساء إليك، بقول أو فعل.

وهذان أفضل من الرابعة، وخير منها وهي: التي يُتبعها المتصدق الأذى للمعطى، لأنه كدّر إحسانه وفعل خيرًا وشرًّا.

فالخير المحض - وإن كان مفضولًا - خير من الخير الذي يخالطه شر، وإن كان فاضلًا، وفي هذا التحذير العظيم لمن يؤذي من تصدق عليه، كما فعله أهل اللؤم والحمق والجهل.

﴿وَٱللَّهُ﴾ تعالى ﴿غَنِىٌّ﴾ عن صدقاتهم، وعن جميع عباده.

﴿حَلِيمٌ﴾ مع كمال غناه، وسعة عطاياه، يحلم عن العاصين، ولا يعاجلهم بالعقوبة، بل يعافيهم ويرزقهم، ويدر عليهم خيره، وهم مبارزون له بالمعاصي.

(٢٦٤-٢٦٦) ثم نهى أشد النهي عن المن والأذى، وضرب لذلك مثلًا، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًاۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ ضرب الله في هذه الآيات ثلاثة أمثلة: للمنفق ابتغاء وجهه ولم يُتبع نفقته منًّا ولا أذى. ولمن أتبعها منًّا وأذى. وللمرائي.

فأما الأول، فإنه لما كانت نفقته مقبولة مضاعفة، لصدورها عن الإيمان والإخلاص التام ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: ينفقون، وهم ثابتون على وجه السماحة والصدق، فمثل هذا العمل ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾ وهو المكان المرتفع، لأنه يتبين للرياح والشمس، والماء فيها غزير.

فإن لم يصبها ذلك الوابل الغزير، حصل طل كاف، لطيب منبتها، وحسن أرضها، وحصول جميع الأسباب الموفرة لنموها وازدهارها وإثمارها. ولهذا آتت ﴿أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ أي: متضاعفًا.

وهذه الجنة التي على هذا الوصف، هي أعلى ما يطلبه الناس، فهذا العمل الفاضل بأعلى المنازل.

وأما من أنفق لله، ثم أتبع نفقته منًّا وأذى، أو عمل عملًا، فأتى بمبطل لذلك العمل، فهذا مثله مثال صاحب هذه الجنة، لكن سُلِّط عليها ﴿إِعْصَارٌ﴾ وهو الريح الشديدة ﴿فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ وله ذرية ضعفاء، وهو ضعيف قد أصابه الكبر.

فهذه الحال من أفظع الأحوال، ولهذا صدر هذا المثل بقوله: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ إلى آخرها بالاستفهام المتقرر عند المخاطبين فظاعته، فإن تلفها دفعة واحدة، بعد زهاء أشجارها، وإيناع ثمارها، مصيبة كبرى.

ثم حصول هذه الفاجعة - وصاحبها كبير قد ضعف عن العمل، وله ذرية ضعفاء، لا مساعدة منهم له، ومؤنتهم عليه - فاجعة أخرى، فصار صاحب هذا المثل، الذي عمل لله، ثم أبطل عمله بمناف له، يشبه حال صاحب الجنة، التي جرى عليها ما جرى، حين اشتدت ضرورته إليها.

المثل الثالث: الذي يرائي الناس، وليس معه إيمان بالله، ولا احتساب لثوابه، حيث شبه قلبه بالصفوان، وهو الحجر الأملس، عليه تراب يظن الرائي أنه إذا أصابه المطر، أنبت كما تنبت الأراضي الطيبة، ولكنه كالحجر، الذي أصابه الوابل الشديد، فأذهب ما عليه من التراب، وتركه صلدًا.

وهذا مثل مطابق لقلب المرائي، الذي ليس فيه إيمان، بل هو قاس لا يلين ولا يخشع.

فهذا أعماله ونفقاته لا أصل لها، تؤسس عليه، ولا غاية لها، تنتهي إليها، بل ما عمله، فهو باطل، لعدم شرطه.

والذي قبله بطل بعد وجود الشرط، لوجود المانع، والأول مقبول مضاعف، لوجود شرطه الذي هو: الإيمان والإخلاص والثبات، وانتفاء الموانع المفسدة.

وهذه الأمثال الثلاثة، تنطبق على جميع العاملين، فليزن العبد نفسه وغيره بهذه الموازين العادلة، والأمثال المطابقة.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾.

(٢٦٨، ٢٨٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ○ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ يحث الباري عباده على الإنفاق مما كسبوا في التجارات، ومما أخرج لهم من الأرض، من الحبوب والثمار، وهذا يشمل زكاة النقدين، والعروض كلها - المعدة للبيع والشراء - والخارج من الأرض: من الحبوب والثمار، ويدخل في عمومها الفرض والنفل.

وأمر تعالى أن يقصدوا الطيب منها، ولا يقصدوا الخبيث، وهو الرديء الدون، يجعلونه لله، ولو بذله لهم من لهم حق عليه، لم يرتضوه ولم يقبلوه إلا على وجه المغاضاة والإغماض.

فالواجب إخراج الوسط من هذه الأشياء، والكمال إخراج العالي، والممنوع إخراج الرديء، فإن هذا لا يجزىء عن الواجب، ولا يحصل فيه الثواب التام في المندوب.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ فهو غني عن جميع المخلوقين، وهو الغني عن نفقات المنفقين، وعن طاعات الطائعين، وإنما أمرهم بها، وحثهم عليها، لنفعهم، ومحض فضله وكرمه عليهم.

ومع كمال غناه، وسعة عطاياه، فهو الحميد فيما يشرعه لعباده من الأحكام الموصلة لهم إلى دار السلام.

وحميد في أفعاله، التي لا تخرج عن الفضل والعدل والحكمة. وحميد الأوصاف، لأن أوصافه كلها محاسن وكمالات، لا يبلغ العباد كنهها، ولا يدركون وصفها.

فلما حثهم على الإنفاق النافع، ونهاهم عن الإمساك الضار، بين لهم أنهم بين داعيين.

داعي الرحمن، يدعوهم إلى الخير، ويعدهم عليه الخير، والفضل والثواب العاجل والآجل، وإخلاف ما أنفقوا.

وداعي الشيطان، الذي يحثهم على الإمساك ويخوفهم، إن أنفقوا أن يفتقروا. فمن كان مجيبًا لداعي الرحمن، وأنفق مما رزقه الله، فليبشر بمغفرة الذنوب، وحصول كل مطلوب، ومن كان مجيبًا لداعي الشيطان، فإنه إنما يدعو حزبه، ليكونوا من أصحاب السعير، فليختر العبد أي الأمرين أليق به.

وختم الآية بأنه ﴿وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: واسع الصفات، كثير الهبات، عليم بمن يستحق المضاعفة من العاملين، وعليم بمن هو أهل، فيوفقه لفعل الخيرات، وترك المنكرات.

(٢٦٩) ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لما ذكر أحوال المنفقين للأموال، وأن الله أعطاهم، ومنَّ عليهم بالأموال التي يدركون بها النفقات في الطرق الخيرية، وينالون بها المقامات السنية، ذكر ما هو أفضل من ذلك، وهو أنه يعطي الحكمة من يشاء من عباده، ومن أراد بهم خيرًا من خلقه.

والحكمة هي: العلوم النافعة، والمعارف الصائبة، والعقول المسددة، والألباب الرزينة، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال.

وهذا أفضل العطايا، وأجل الهبات، ولهذا قال: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ لأنه خرج من ظلمة الجهالات إلى نور الهدى، ومن حمق الانحراف في الأقوال والأفعال، إلى إصابة الصواب فيها، وحصول السداد، ولأنه كمل نفسه بهذا الخير العظيم، واستعد لنفع الخلق أعظم نفع، في دينهم ودنياهم.

وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة، التي هي وضع الأشياء مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام في محل الإقدام والإحجام في موضع الإحجام.

ولكن ما يتذكر هذا الأمر العظيم، وما يعرف قدر هذا العطاء الجسيم ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وهم أهل العقول الوافية، والأحلام الكاملة، فهم الذين يعرفون النافع فيعملونه، والضار فيتركونه.

وهذان الأمران: وهما بذل النفقات المالية، وبذل الحكمة العلمية، أفضل ما تقرب به المتقربون إلى الله، وأعلى ما وصلوا به إلى أجلّ الكرامات.

وهما اللذان ذكرهما النبي ﷺ بقوله: «لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالًا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يعلمها الناس».

(٢٧٠، ٢٧١) ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ○ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يخبر تعالى، أنه مهما أنفق المنفقون أو تصدق المتصدقون، أو نذر الناذرون، فإن الله يعلم ذلك.

ومضمون الإخبار بعلمه، يدل على الجزاء، وأن الله لا يضيع عنده مثقال ذرة، ويعلم ما صدرت عنه، من نيات صالحة، أو سيئة، وأن الظالمين الذين يمنعون ما أوجب الله عليهم، أو يقتحمون ما حرم عليهم، ليس لهم من دونه

أنصار، ينصرونهم ويمنعونهم، وأنه لا بد أن تقع بهم العقوبات.

وأخبر أن الصدقة إن أبداها المتصدق، فهي خير، وإن أخفاها، وسلمها للفقير، كان أفضل، لأن الإخفاء على الفقير، إحسان آخر.

وأيضًا فإنه يدل على قوة الإخلاص، وأحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله: «من تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

وفي قوله: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فائدة لطيفة، وهو أن إخفاءها خير من إظهارها، إذا أعطيت للفقير.

فأما إذا صرفت في مشروع خيري، لم يكن في الآية، ما يدل على فضيلة إخفائها، بل هنا قواعد الشرع تدل على مراعاة المصلحة، فربما كان الإظهار خيرًا، لحصول الأسوة والاقتداء، وتنشيط النفوس على أعمال الخير.

وقوله: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ في هذا: أن الصدقات يجتمع فيها الأمران:

حصول الخير، وهو: كثرة الحسنات والثواب والأجر، ودفع الشر والبلاء الدنيوي والأخروي، بتكفير السيئات.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازي كلًّا بعمله، بحسب حكمته.

(٢٧٢) ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي: إنما عليك - أيها الرسول - البلاغ، وحث الناس على الخير، وزجرهم عن الشر، وأما الهداية، فبيد الله تعالى.

ويخبرهم عن المؤمنين حقًّا، أنهم لا ينفقون إلا لطلب مرضاة ربهم، واحتساب ثوابه، لأن إيمانهم يدعوهم إلى ذلك، فهذا خير وتزكية للمؤمنين ويتضمن التذكير لهم بالإخلاص.

وكرر علمه - تعالى - بنفقاتهم، لإعلامهم أنه لا يضيع عنده مثقال ذرة: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

(٢٧٣، ٢٧٤) ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ۝ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يعني أنه ينبغي أن تتحروا بصدقاتكم الفقراء، الذين حبسوا أنفسهم في سبيل الله، وعلى طاعته، وليس لهم إرادة في الاكتساب، أو ليس لهم قدرة عليه، وهم يتعففون، إذا رآهم الجاهل ظن أنهم أغنياء ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ فهم لا يسألون بالكلية، وإن سألوا اضطرارًا، لم يلحفوا في السؤال.

فهذا الصنف من الفقراء أفضل ما وضعت فيهم النفقات لدفع حاجتهم، وإعانة لهم على مقصدهم وطريق الخير، وشكرًا لهم على ما اتصفوا به من الصبر، والنظر إلى الخالق لا إلى الخلق.

ومع ذلك فالإنفاق في طرق الإحسان وعلى المحاويج حيثما كانوا، فإنه خير وأجر، وثواب عند الله ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فإن الله يظلهم بظله يوم لا ظل إلا ظله، وإن الله ينيلهم الخيرات، ويدفع عنهم الأحزان والمخاوف والكريهات.

وقوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: كل أحد منهم بحسب حاله.

وتخصيص ذلك بأنه عند ربهم يدل على شرف هذه الحال ووقوعها في الموقع الأكبر كما في الحديث الصحيح: «إن العبد ليتصدق بالتمرة من كسب طيب، فيتقبلها الجبار بيده، فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل العظيم».

(٢٧٥-٢٨١) ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ۝ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لما ذكر الله حالة المنفقين وما لهم من الله من الخيرات، وما يكفر عنهم من الذنوب والخطيئات،

ذكر الظالمين أهل الربا والمعاملات الخبيثة، وأخبر أنهم يجازون بحسب أعمالهم، فكما كانوا في الدنيا في طلب المكاسب الخبيثة كالمجانين عوقبوا في البرزخ والقيامة، أنهم لا يقومون من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ أي: من الجنون والصرع.

وذلك عقوبة وخزي وفضيحة لهم، وجزاء لهم على مراباتهم ومجاهرتهم بقولهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ فجمعوا - بجراءتهم - بين ما أحل الله وبين ما حرم الله، واستباحوا بذلك الربا.

ثم عرض تعالى العقوبة على المرابين وغيرهم فقال: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ بيان مقرون به الوعد والوعيد.

﴿فَٱنتَهَىٰ﴾ عما كان يتعاطاه من الربا ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ مما تجرأ عليه وتاب منه.

﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فيما يستقبل من زمانه، فإن استمر على توبته فالله لا يضيع أجر المحسنين.

﴿وَمَنْ عَادَ﴾ بعد بيان الله وتذكيره وتوعده لآكل الربا ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ في هذا: أن الربا موجب لدخول النار والخلود فيها وذلك لشناعته، مالم يمنع من الخلود مانع الإيمان.

وهذا من جملة الأحكام التي تتوقف على وجود شروطها وانتفاء موانعها وليس فيها حجة للخوارج كغيرها من آيات الوعيد.

فالواجب أن تصدق جميع نصوص الكتاب والسنة، فيؤمن العبد بما تواترت به النصوص، من خروج من في قلبه أدنى مثقال حبة خردلٍ من الإيمان، من النار.

ومن استحقاق هذه الموبقات لدخول النار إن لم يتب منها.

ثم أخبر تعالى أنه يمحق مكاسب المرابين ويربي صدقات المنفقين عكس ما يتبادر لأذهان كثير من الخلق أن الإنفاق ينقص المال وأن الربا يزيده، فإن مادة الرزق وحصول ثمراته من الله تعالى، وما عند الله لا ينال إلا بطاعته وامتثال أمره.

فالمتجرئ على الربا، يعاقبه بنقيض مقصوده وهذا مشاهد بالتجربة ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ وهو الذي كفر نعمة الله وجحد منّة ربه وأثِمَ بإصراره على معاصيه.

ومفهوم الآية أن الله يحب من كان شكورًا على النعماء تائبًا من المآثم والذنوب.

ثم أدخل هذه الآية بين آيات الربا وهي قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الآية، لبيان أن أكبر الأسباب لاجتناب ما حرم الله من المكاسب الربوية تكميل الإيمان وحقوقه، خصوصًا إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وإن الزكاة إحسان إلى الخلق ينافي تعاطي الربا، الذي هو ظلم لهم وإساءة عليهم.

ثم وجه الخطاب للمؤمنين، وأمرهم أن يتقوه ويذروا ما بقي من معاملات الربا، التي كانوا يتعاطونها قبل ذلك وأنهم إن لم يفعلوا ذلك، فإنهم محاربون لله ورسوله، وهذا من أعظم ما يدل على شناعة الربا، حيث جعل المصر عليه محاربًا لله ورسوله.

(٢٧٩) ثم قال: ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ يعني من المعاملات الربوية.

﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ الناس بأخذ الربا ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ ببخسكم رؤوس أموالكم.

فكل من تاب من الربا، فإن كانت معاملات سالفة فله ما سلف، وأمره منظور فيه، وإن كانت معاملات موجودة وجب عليه أن يقتصر على رأس ماله، فإن أخذ زيادة فقد تجرأ على الربا.

وفي هذه الآية بيان لحكمة الربا، وأنه يتضمن الظلم للمحتاجين بأخذ الزيادة وتضاعف الربا عليهم، وهو واجب إنظارهم.

ولهذا قال: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ أي: وإن كان الذي عليه الدين معسرًا، لا يقدر على الوفاء، وجب على غريمه أن يُنظره إلى ميسرة.

وهو يجب عليه إذا حصل له وفاء بأي طريق مباح أن يوفي ما عليه.

وإن تصدق عليه غريمه - بإسقاط الدين كله أو بعضه - فهو خير له، ويهون على العبد التزام الأمور الشرعية، واجتناب المعاملات الربوية، والإحسان إلى المعسرين، علمه بأن له يومًا يرجع فيه إلى الله، ويوفيه عمله، ولا يظلمه مثقال ذرة كما ختم هذه الآية بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

(٢٨٢، ٢٨٣) ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ

﴿بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ○ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

احتوت هاتان الآيتان على إرشاد الباري عباده في معاملاتهم، إلى حفظ حقوقهم بالطرق النافعة، والإصلاحات التي لا يقترح العقلاء أعلى ولا أكمل منها، فإن فيها فوائد كثيرة.

منها: جواز المعاملات في الديون، سواء كانت ديون سلم أو شراء مؤجلًا ثمنه، فكله جائز، لأن الله أخبر به عن المؤمنين، وما أخبر به عن المؤمنين فإنه من مقتضيات الإيمان، وقد أقرهم عليه الملك الديان.

ومنها: وجوب تسمية الأجل في جميع المداينات وحلول الإجارات.

ومنها: أنه إذا كان الأجل مجهولًا فإنه لا يحل، لأنه غرر وخطر، فيدخل في الميسر.

ومنها: أمره تعالى بكتابة الديون.

وهذا الأمر قد يجب، إذا وجب حفظ الحق، كالذي للعبد عليه ولاية كأموال اليتامى، والأوقاف والوكلاء والأمناء وقد يقارب الوجوب، كما إذا كان الحق متمحضًا للعبد، فقد يقوى الوجوب وقد يقوى الاستحباب، بحسب الأحوال المقتضية لذلك.

وعلى كل حال، فالكتابة من أعظم ما تحفظ بها هذه المعاملات المؤجلة، لكثرة النسيان، ولوقوع المغالطات، وللاحتراز من الخوَنة الذين لا يخشون الله تعالى.

ومنها: أمره تعالى للكاتب أن يكتب بين المتعاملين بالعدل، فلا يميل مع أحدهما لقرابة ولا غيرها، ولا على أحدهما لعداوة ونحوها.

ومنها: أن الكتابة بين المتعاملين من أفضل الأعمال، ومن الإحسان إليهما، وفيها حفظ حقوقهما وبراءة ذممهما كما أمره الله بذلك، فليحتسب الكاتب بين الناس هذه الأمور، ليحظى بثوابها.

ومنها: أن الكاتب لا بد أن يكون عارفًا بالعدل معروفًا بالعدل؛ لأنه إذا لم يكن عارفًا بالعدل لم يتمكن منه، وإذا لم يكن معتبرًا عدلًا عند الناس رضيًّا، لم تكن كتابته معتبرة، ولا حاصلًا بها المقصود، الذي هو حفظ الحقوق.

ومنها: أن من تمام الكتابة والعدل فيها، أن يحسن الكاتب الإنشاء والألفاظ المعتبرة في كل معاملة بحسبها، وللعرف في هذا المقام اعتبار عظيم.

ومنها: أن الكتابة من نعم الله على العباد، التي لا تستقيم أمورهم الدينية ولا الدنيوية إلا بها، وأن من علمه الله الكتابة فقد تفضل عليه بفضل عظيم، فمن تمام شكره لنعمة الله تعالى، أن يقضي بكتابته حاجات العباد، ولا يمتنع من الكتابة، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾.

ومنها: أن الذي يكتبه الكاتب هو اعتراف من عليه الحق، إذا كان يحسن التعبير عن الحق الذي عليه، فإن كان لا يحسن ذلك - لصغره أو سفهه، أو جنونه، أو خرسه، أو عدم استطاعته - أملى عنه وليه، وقام وليه في ذلك مقامه.

ومنها: أن الاعتراف من أعظم الطرق التي تثبت بها الحقوق، حيث أمر الله تعالى أن يكتب الكاتب ما أملى عليه من عليه الحق.

ومنها: ثبوت الولاية على القاصرين: من الصغار والمجانين والسفهاء ونحوهم.

ومنها: أن الولي يقوم مقام موليه في جميع اعترافاته المتعلقة بحقوقه.

ومنها: أن من أمنته في معاملة وفوضته فيها فقوله في ذلك مقبول وهو نائب منابك لأنه إذا كان الولي على القاصرين ينوب منابهم فالذي وليته باختيارك وفوضت إليه الأمر أولى بالقبول واعتبار قوله وتقديمه على قولك عند الاختلاف.

ومنها: أنه يجب على الذي عليه الحق - إذا أملى على الكاتب - أن يتقي الله ولا يبخس الحق الذي عليه، فلا ينقصه في قدره، ولا في وصفه، ولا في شرط من شروطه، أو قيد من قيوده، بل عليه أن يعترف بكل ما عليه من متعلقات الحق، كما يجب ذلك إذا كان الحق على غيره له، فمن لم يفعل ذلك، فهو من المطففين الباخسين.

ومنها: وجوب الاعتراف بالحقوق الجلية والحقوق الخفية، وأن ذلك من أعظم خصال التقوى، كما أن ترك الاعتراف بها من نواقض التقوى ونواقصها.

ومنها: الإرشاد إلى الإشهاد في البيع، فإن كانت في المداينات فحكمها حكم الكتابة كما تقدم، لأن الكتابة هي كتابة الشهادة، وإن كان البيع بيعًا حاضرًا فينبغي الإشهاد فيه، ولا حرج فيه بترك الكتابة، لكثرته وحصول المشقة فيه.

ومنها: الإرشاد إلى إشهاد رجلين عدلين، فإن لم يمكن أو تعذر أو تعسر فرجل وامرأتان، وذلك شامل لجميع المعاملات: بيوع الإدارة، وبيوع الديون، وتوابعها من الشروط والوثائق وغيرها.

وإذا قيل: قد ثبت أنه ﷺ قضى بالشاهد الواحد مع اليمين، والآية الكريمة ليس فيها إلا شهادة رجلين أو رجل وامرأتين، قيل: الآية الكريمة فيها إرشاد الباري عباده إلى حفظ حقوقهم، ولهذا أتى فيها بأكمل الطرق وأقواها، وليس فيها ما ينافي ما ذكره النبي ﷺ من الحكم بالشاهد واليمين.

فباب حفظ الحقوق في ابتداء الأمر، يرشد فيه العبد إلى الاحتراز والتحفظ التام، وباب الحكم بين المتنازعين ينظر فيه إلى المرجحات والبينات، بحسب حالها.

ومنها: أن شهادة المرأتين قائمة مقام الرجل الواحد في الحقوق الدنيوية، وأما في الأمور الدينية - كالرواية والفتوى - فإن المرأة فيه تقوم مقام الرجل والفرق ظاهر بين البابين.

ومنها: الإرشاد إلى الحكمة في كون شهادة المرأتين عن شهادة الرجل، وأنه لضعف ذاكرة المرأة غالبًا، وقوة حافظة الرجل.

ومنها: أن الشاهد لو نسي شهادته فذكره الشاهد الآخر فذكر أنه لا يضر ذلك النسيان إذا زال بالتذكير لقوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ ومن باب أولى، إذا نسي الشاهد ثم ذكر من دون تذكير فإن الشهادة مدارها على العلم واليقين.

ومنها: أن الشهادة لا بد أن تكون عن علم ويقين لا عن شك، فمتى صار عند الشاهد ريب في شهادته - ولو غلب على ظنه - لم يحل له أن يشهد إلا بما يعلم.

ومنها: أن الشاهد ليس له أن يمتنع إذا دعي للشهادة، سواء دعي للتحمل أو للأداء، وأن القيام بالشهادة من أفضل الأعمال الصالحة، كما أمر الله بها وأخبر عن نفعها ومصالحها.

ومنها: أنه لا يحل الإضرار بالكاتب ولا بالشهيد بأن يدعيا في وقت أو حالة تضرهما.

وكما أنه نهي لأهل الحقوق والمتعاملين وأن يضار الشهود والكتاب، فإنه أيضًا نهي للكاتب والشهيد أن يضار المتعاملين أو أحدهما.

وفي هذا أيضًا أن الشاهد والكاتب - إذا حصل عليهما ضرر في الكتابة والشهادة - أنه يسقط عنهما الوجوب.

وفيها التنبيه على أن جميع المحسنين الفاعلين للمعروف، لا يحل إضرارهم وتحميلهم ما لا يطيقون، فـ ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾.

وكذلك على من أحسن وفعل معروفًا أن يتمم إحسانه، بترك الإضرار القولي والفعلي بمن أوقع به المعروف، فإن الإحسان لا يتم إلا بذلك.

ومنها: أنه لا يجوز أخذ الأجرة على الكتابة والشهادة حيث وجبت، لأنه حق أوجبه الله على الكاتب والشهيد، ولأنه من مضارة المتعاملين.

ومنها: التنبيه على المصالح والفوائد المترتبة على العمل بهذه الإرشادات الجليلة، وأن فيها حفظ الحقوق والعدل، وقطع التنازع والسلامة من النسيان والذهول ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ وهذه مصالح ضرورية للعباد.

ومنها: أن تعلم الكتابة من الأمور الدينية، لأنها وسيلة إلى حفظ الدين والدنيا وسبب للإحسان.

ومنها: أن من خصه الله بنعمة من النعم يحتاج الناس إليها، فمن تمام شكر هذه النعمة أن يعود بها على عباد الله، وأن يقضي بها حاجتهم، لتعليل الله النهي عن الامتناع عن الكتابة بتذكير الكاتب بقوله: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾، ومع هذا: فـ«من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته».

ومنها: أن الإضرار بالشهود والكتاب فسوق بالإنسان، فإن الفسوق هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته، وهو يزيد وينقص ويتبعض، ولهذا لم يقل: «فأنتم فسّاق» أو «فاسقون» بل قال: ﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ فبقدر خروج العبد عن طاعة ربه فإنه يحصل به من الفسوق بحسب ذلك.

واستدل بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ أن تقوى الله وسيلة إلى حصول العلم، وأوضح من هذا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي: علمًا تفرقون به بين الحقائق والحق والباطل.

ومنها: أنه كما أنه من العلم النافع تعليم الأمور الدينية المتعلقة بالعبادات، فمنه أيضًا تعليم الأمور الدنيوية المتعلقة بالمعاملات، فإن الله تعالى حفظ على العباد أمور دينهم ودنياهم، وكتابه العظيم فيه تبيان كل شيء.

ومنها: مشروعية الوثيقة بالحقوق، وهي الرهون

والضمانات التي تكفل للعبد حصوله حقه، سواء عامل برًّا أو فاجرًا، أمينًا أو خائنًا، فكم في الوثائق من حفظ حقوق وانقطاع منازعات.

ومنها: أن تمام الوثيقة في الرهن أن يكون مقبوضًا، ولا يدل ذلك على أنه لا يصح الرهن إلا بالقبض، بل التقييد بكون الرهن مقبوضًا، يدل على أنه قد يكون مقبوضًا تحصل به الثقة التامة، وقد لا يكون مقبوضًا، فيكون ناقصًا.

ومنها: أنه يستدل بقوله: ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ أنه إذا اختلف الراهن والمرتهن في مقدار الدين الذي به الرهن، أن القول قول المرتهن صاحب الحق، لأن الله جعل الرهن وثيقة به، فلولا أنه يقبل قوله في ذلك، لم تحصل به الوثيقة لعدم الكتابة والشهود.

ومنها: أنه يجوز التعامل بغير وثيقة ولا شهود، لقوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ ولكن في هذه الحال يحتاج إلى التقوى والخوف من الله، وإلا فصاحب الحق مخاطر في حقه، ولهذا أمر الله في هذه الحال من عليه الحق، أن يتقي الله ويؤدي أمانته.

ومنها: أن من ائتمنه معامله فقد عمل معه معروفًا عظيمًا، ورضي بدينه وأمانته فيتأكد على من عليه الحق أداء الأمانة من الجهتين: أداء لحق الله، وامتثالًا لأمره، ووفاء بحق صاحبه الذي رضي بأمانته ووثق به.

ومنها: تحريم كتم الشهادة وأن كاتمها قد أثم قلبه، الذي هو ملك الأعضاء وذلك لأن كتمها كالشهادة بالباطل والزور، فيها ضياع الحقوق وفساد المعاملات، والإثم المتكرر في حقه وحق من عليه الحق.

وأما تقييد الرهن بالسفر - مع أنه يجوز حضرًا وسفرًا - فللحاجة إليه، لعدم الكاتب والشهيد.

وختم الآية بأنه ﴿عَلِيمٌ﴾ بكل ما يعمله العباد، كالترغيب لهم في المعاملات الحسنة والترهيب من المعاملات السيئة.

(٢٨٤) ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يخبر تعالى بعموم ملكه لأهل السماء والأرض وإحاطة علمه بما أبداه العباد وما أخفوه في أنفسهم، وأنه سيحاسبهم به، فيغفر لمن يشاء، وهو المنيب إلى ربه الأواب إليه إنه ﴿كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾.

ويعذب من يشاء وهو المصر على المعاصي في باطنه وظاهره.

وهذه الآية لا تنافي الأحاديث الواردة في العفو، عما حدث به العبد نفسه ما لم يعمل أو يتكلم، فتلك الخطرات التي تتحدث بها النفوس التي لا يتصف بها العبد ولا يصمم عليها، وأما هنا فهي العزائم المصممة، والأوصاف الثابتة في النفوس: أوصاف الخير وأوصاف الشر، ولهذا قال: ﴿مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: استقر فيها وثبت من العزائم والأوصاف.

وأخبر أنه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فمن تمام قدرته محاسبة الخلائق وإيصال ما يستحقونه من الثواب والعقاب.

(٢٨٥، ٢٨٦) ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ○ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ثبت عنه ﷺ أن من قرأ هاتين الآيتين في ليلته كفتاه أي: من جميع الشرور، وذلك لما احتوتا عليه من المعاني الجليلة، فإن الله أمر في أول هذه السورة الناس بالإيمان، بجميع أصوله في قوله: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية.

وأخبر في هذه الآية أن الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين، آمنوا بهذه الأصول العظيمة وبجميع الرسل، وجميع الكتب ولم يصنعوا صنيع من آمن ببعض وكفر ببعض، كحالة المنحرفين من أهل الأديان المنحرفة.

وفي قرن المؤمنين بالرسول ﷺ والإخبار عنهم جميعًا بخبر واحد، شرف عظيم للمؤمنين.

وفيه أنه ﷺ مشاركٌ للأمة في توجه الخطاب الشرعي له، وقيامه التام به، وأنه فاق المؤمنين، بل فاق جميع المرسلين في القيام بالإيمان وحقوقه.

وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ هذا التزام من المؤمنين عام لجميع ما جاء به النبي ﷺ من الكتاب والسنة، وأنهم سمعوه سماع قبول وإذعان وانقياد، ومضمون ذلك تضرعهم إلى الله في طلب الإعانة على القيام به، وأن الله يغفر لهم ما قصروا فيه من الواجبات، وما ارتكبوه من المحرمات، وكذلك تضرعوا إلى الله في هذه الأدعية النافعة، والله تعالى قد أجاب دعاءهم على لسان نبيه ﷺ فقال: «قد فعلت».

فهذه الدعوات مقبولة من مجموع المؤمنين قطعًا، ومن أفرادهم، إذا لم يمنع من ذلك مانع في الأفراد، وذلك أن الله رفع عنهم المؤاخذة في الخطأ والنسيان، وأن الله سهل عليهم شرعه غاية التسهيل، ولم يحملهم من المشاق والآصار

والأغلال ما حمله على من قبلهم، ولم يحملهم فوق طاقتهم وقد غفر لهم ورحمهم، ونصرهم على القوم الكافرين.

فنسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته، وبما من به علينا من التزام دينه، أن يحقق لنا ذلك وأن ينجز لنا ما وعدنا على لسان نبيه، وأن يصلح أحوال المؤمنين.

ويؤخذ من هنا قاعدة التيسير، ونفي الحرج في أمور الدين كلها.

وقاعدة العفو عن النسيان والخطأ: في العبادات وفي حقوق الله تعالى وكذلك في حقوق الخلق من جهة رفع المأثم وتوجه الذم.

وأما وجوب ضمان المتلفات خطأ أو نسيانًا، في النفوس والأموال، فإنه مرتب على الإتلاف بغير حق، وذلك شامل لحالة الخطأ والنسيان والعمد.

تم تفسير سورة البقرة ولله الحمد والثناء وصلى الله على محمد وسلم.

تفسير سورة آل عمران

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١-٦) ﴿الٓمٓ ○ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ ○ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ○ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ○ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَآءِ ○ هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، ﴿الٓمٓ﴾ من الحروف التي لا يعلم معناها إلا الله

فأخبر تعالى أنه ﴿الْحَىُّ﴾ كامل الحياة ﴿الْقَيُّومُ﴾ القائم بنفسه المقيم لأحوال خلقه، وقد أقام أحوالهم الدينية، وأحوالهم الدنيوية والقدرية، فأنزل على رسوله محمد ﷺ الكتاب بالحق الذي لا ريب فيه، وهو مشتمل على الحق ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب، أي: شهد بما شهدت به، ووافقها وصدق من جاء بها من المرسلين.

﴿وَ﴾ كذلك ﴿أَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ ﴿مِن قَبْلُ﴾ هذا الكتاب ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾.

وأكمل الرسالة وختمها بمحمد ﷺ، وكتابه العظيم الذي هدى الله به الخلق من الضلالات، واستنقذهم به من الجهالات، وفرق به بين الحق والباطل، والسعادة والشقاوة، والصراط المستقيم، وطرق الجحيم، فالذين آمنوا به واهتدوا، حصل لهم به الخير الكثير والثواب العاجل والآجل.

و ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ﴾ التي بينها في كتابه وعلى لسان رسوله ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ ممن عصاه.

ومن تمام قيوميته تعالى أن علمه محيط بالخلائق ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَآءِ﴾ حتى ما في بطون الحوامل.

فهو ﴿الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ من ذكر وأنثى، وكامل الخلق وناقصه، متنقلين في أطوار خلقته وبديع حكمته، فمن هذا شأنه مع عباده، واعتناؤه العظيم بأحوالهم، من حين أنشأهم إلى منتهى أمورهم لا مشارك له في ذلك - فيتعين أنه لا يستحق العبادة إلا هو.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر الخلائق بقوته، واعتز عن أن يوصف بنقص، أو ينعت بذم ﴿الْحَكِيمُ﴾ في خلقه وشرعه.

(٧، ٨) ﴿هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ابْتِغَآءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّٰسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا الْأَلْبَٰبِ ○ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ يخبر تعالى عن عظمته وكمال قيوميته، أنه هو الذي تفرد بإنزال هذا الكتاب العظيم، الذي لم يوجد - ولن يوجد - له نظير أو مقارب في هدايته، وبلاغته وإعجازه وإصلاحه للخلق وأن هذا الكتاب يحتوي على المحكم الواضح المعاني البين الذي لا يشتبه بغيره، ومنه آيات متشابهات تحتمل بعض المعاني ولا يتعين منها واحد من الاحتمالين بمجردها حتى تضم إلى المحكم.

فالذين في قلوبهم مرض وزيغ وانحراف لسوء قصدهم يتبعون المتشابه منه فيستدلون به على مقالاتهم الباطلة، وآرائهم الزائفة، طلبًا للفتنة وتحريفًا لكتابه، وتأويلًا له على مشاربهم ومذاهبهم، ليضلوا ويضلوا.

وأما أهل العلم الراسخون فيه، الذين وصل العلم واليقين إلى أفئدتهم، فأثمر لهم العمل والمعارف - فيعلمون أن القرآن كله من عند الله، وأنه كله حق، محكمه ومتشابهه، وأن الحق لا يتناقض ولا يختلف.

فلعلمهم أن المحكمات معناها في غاية الصراحة والبيان، يردون إليها المشتبه الذي تحصل فيه الحيرة، لناقص العلم

وناقص المعرفة.

فيردون المتشابه إلى المحكم فيعود كله محكمًا، ويقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ للأمور النافعة والعلوم الصائبة ﴿إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: أهل العقول الرزينة.

ففي هذا دليل على أن هذا من علامة أولي الألباب، وأن اتباع المتشابه من أوصاف أهل الآراء السقيمة والعقول الواهية، والقصود السيئة.

وقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ إن أريد بالتأويل معرفة عاقبة الأمور، وما تنتهي وتؤول إليه تعين الوقوف على «إلا الله»، حيث هو تعالى المتفرد بالتأويل بهذا المعنى، وإن أريد بالتأويل: معنى التفسير ومعرفة معنى الكلام كان العطف أولى، فيكون هذا مدحًا للراسخين في العلم أنهم يعلمون كيف ينزلون نصوص الكتاب والسنة محكمها ومتشابهها.

ولما كان المقام مقام انقسام إلى منحرفين ومستقيمين دعوا الله تعالى أن يثبتهم على الإيمان فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ أي: لا تملها عن الحق إلى الباطل.

﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ﴾ تصلح بها أحوالنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ أي: كثير الفضل والهبات.

وذلك أن الله تعالى ذكر عن الراسخين أنهم يسألونه أن لا يزيغ قلوبهم بعد إذ هداهم، وقد أخبر في آيات أخر الأسباب التي بها تزيغ قلوب أهل الانحراف، وأن ذلك بسبب كسبهم كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾، ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾.

فالعبد إذا تولى عن ربه ووالى عدوه، ورأى الحق فصدف عنه، ورأى الباطل فاختاره، ولاه الله ما تولى لنفسه، وأزاغ قلبه عقوبة له على زيغه، وما ظلمه الله ولكنه ظلم نفسه، فلا يلم إلا نفسه الأمارة بالسوء والله أعلم.

(٩) ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ هذا من تتمة كلام الراسخين في العلم، وهو يتضمن الإقرار بالبعث والجزاء واليقين التام، وأن الله لا بد أن يوقع ما وعد به وذلك يستلزم موجبه ومقتضاه؛ من العمل والاستعداد لذلك اليوم فإن الإيمان بالبعث والجزاء أصل صلاح القلوب، وأصل الرغبة في الخير والرهبة من الشر، اللذين هما أساس الخيرات.

(١٠، ١١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ۝ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لما ذكر يوم القيامة ذكر أن جميع من كفر بالله، وكذب رسول الله، لا بد أن يدخلوا النار ويصلوها، وأن أموالهم وأولادهم لن تغني عنهم شيئًا من عذاب الله، وأنه سيجري عليهم في الدنيا من الأخذات والعقوبات، ما جرى على فرعون وسائر الأمم المكذبة بآيات الله ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ﴾ وعجّل لهم العقوبات الدنيوية متصلة بالعقوبات الأخروية.

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فإياكم أن تستهينوا بعقابه فيهون عليكم الإقامة على الكفر والتكذيب.

(١٢، ١٣) ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ وهذا خبر وبشرى للمؤمنين، وتخويف للكافرين أنهم لا بد أن يغلبوا في هذه الدنيا، وقد وقع كما أخبر الله، فغُلبوا غلبة لم يكن لها مثيل ولا نظير.

وجعل الله تعالى ما وقع في «بدر» من آياته الدالة على صدق رسوله، وأنه على الحق وأعداءه على الباطل، حيث التقت فئتان، فئة المؤمنين لا يبلغون إلا ثلاث مئة وبضعة عشر رجلًا مع قلة عددهم. وفئة الكافرين يناهزون الألف، مع استعدادهم التام في السلاح وغيره، فأيد الله المؤمنين بنصره، فهزموهم بإذن الله ففي هذا عبرة لأهل البصائر.

فلولا أن هذا هو الحق الذي إذا قابل الباطل أزهقه واضمحل الباطل، لكان - بحسب الأسباب الحسية - الأمر بالعكس.

(١٤، ١٥) ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۝ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أخبر تعالى في هاتين الآيتين عن حالة الناس في إيثار الدنيا على الآخرة، وبين التفاوت العظيم والفرق الجسيم بين الدارين، فأخبر أن الناس زينت لهم هذه الأمور، فرمقوها بالأبصار واستحلوها بالقلوب، وعكفت على لذاتها النفوس، كل طائفة من الناس تميل إلى نوع من هذه الأنواع، قد جعلوها هي أكبر همهم ومبلغ علمهم، وهي - مع هذا - متاع قليل منقض في مدة يسيرة.

فهذا ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾.

ثم أخبر عن ذلك بأن المتقين لله، القائمين بعبوديته، لهم

خير من هذه اللذات، فلهم أصناف الخيرات والنعيم المقيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولهم رضوان الله الذي هو أكبر من كل شيء.

ولهم الأزواج المطهرة من كل آفة ونقص، جميلات الأخلاق، كاملات الخلائق، لأن النفي يستلزم ضده، فتطهيرها من الآفات مستلزم لوصفها بالكمالات.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ فييسر كلًا منهم لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرهم للعمل لهذه الدار الباقية، ويأخذون من هذه الحياة الدنيا ما يعينهم على عبادة الله وطاعته. وأما أهل الشقاوة والإعراض فيقيضهم لعمل أهل الشقاوة، ويرضون بالحياة الدنيا، ويطمئنون بها، ويتخذونها قرارًا.

(١٦، ١٧) ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ○ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ أي: هؤلاء الراسخون في العلم أهل العلم والإيمان، يتوسلون إلى ربهم بإيمانهم، لمغفرة ذنوبهم ووقايتهم عذاب النار، وهذا من الوسائل التي يحبها الله أن يتوسل العبد إلى ربه بما من به عليه من الإيمان والأعمال الصالحة، إلى تكميل نعم الله عليه بحصول الثواب الكامل واندفاع العقاب.

ثم وصفهم بأجمل الصفات: بالصبر الذي هو حبس النفوس على ما يحبه الله طلبًا لمرضاته، يصبرون على طاعة الله. ويصبرون عن معاصيه. ويصبرون على أقداره المؤلمة.

وبالصدق بالأقوال والأحوال، وهو استواء الظاهر والباطن، وصدق العزيمة على سلوك الصراط المستقيم. وبالقنوت الذي هو دوام الطاعة مع مصاحبة الخشوع والخضوع وبالنفقات في سبيل الخيرات وعلى الفقراء وأهل الحاجات. وبالاستغفار خصوصًا وقت الأسحار، فإنهم مدوا الصلاة إلى وقت السحر، فجلسوا يستغفرون الله تعالى.

(١٨) ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ هذه أجل الشهادات الصادرة من الملك العظيم، ومن الملائكة وأهل العلم، على أجل مشهود عليه، وهو توحيد الله وقيامه بالقسط. وذلك يتضمن الشهادة على جميع الشرع وجميع أحكام الجزاء.

فإن الشرع والدين أصله وقاعدته توحيد الله وإفراده بالعبودية، والاعتراف بانفراده بصفات العظمة والكبرياء والمجد والعز والقدرة والجلال وبنعوت الجود والبر والرحمة والإحسان. والجمال وبكماله المطلق الذي لا يحصي أحد من الخلق أن يحيطوا بشيء منه، أو يبلغوه أو يصلوا إلى الثناء عليه، والعبادات الشرعية والمعاملات وتوابعها والأمر والنهي كله عدل وقسط لا ظلم فيه ولا جور بوجه من الوجوه بل هو في غاية الحكمة والإحكام والجزاء على الأعمال الصالحة والسيئة كله قسط وعدل.

﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ فتوحيد الله ودينه وجزاؤه قد ثبت ثبوتًا لا ريب فيه وهو أعظم الحقائق وأوضحها، وقد أقام الله على ذلك من البراهين والأدلة ما لا يمكن إحصاؤه وعده.

وفي هذه الآية فضيلة العلم والعلماء، لأن الله خصهم بالذكر من دون البشر وقرن شهادتهم بشهادته، وشهادة ملائكته، وجعل شهادتهم من أكبر الأدلة والبراهين على توحيده ودينه وجزائه، وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة.

وفي ضمن ذلك: تعديلهم وأن الخلق تبع لهم، وأنهم هم الأئمة المتبوعون، وفي هذا من الفضل والشرف وعلو المكانة ما لا يقادر قدره.

(١٩) ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ يخبر تعالى ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: الدين الذي لا دين لله سواه، ولا مقبول غيره، هو ﴿ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ وهو الانقياد لله وحده ظاهرًا وباطنًا بما شرعه على ألسنة رسله، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ فمن دان بغير دين الإسلام فهو لم يدن لله حقيقة لأنه لم يسلك الطريق الذي شرعه على ألسنة رسله.

ثم أخبر تعالى أن أهل الكتاب يعلمون ذلك، وإنما اختلفوا، فانحرفوا عنه عنادًا وبغيًا وإلا فقد جاءهم العلم المقتضي لعدم الاختلاف، الموجب للزوم الدين الحقيقي.

ثم لما جاءهم محمد ﷺ عرفوه حق المعرفة، ولكن الحسد والبغي والكفر بآيات الله، هي التي صدتهم عن اتباع الحق.

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: فلينتظروا ذلك فإنه آت وسيجزيهم الله بما كانوا يعملون.

(٢٠) ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ لما بين أن الدين الحقيقي عنده الإسلام، وكان أهل الكتاب قد شافهوا النبي ﷺ بالمجادلة، وقامت عليهم الحجة فعاندوها، أمره الله تعالى عند ذلك أن يقول ويعلن أنه قد أسلم وجهه أي: ظاهره وباطنه

لله، وأن من اتبعه كذلك قد وافقوه على هذا الإذعان الخالص.

وأن يقول للناس كلهم من أهل الكتاب والأميين أي: الذين ليس لهم كتاب من العرب وغيرهم: إن أسلمتم فأنتم على الطريق المستقيم، والهدى والحق، وإن توليتم فحسابكم على الله، وأنا ليس علي إلا البلاغ، وقد أبلغتكم وأقمت عليكم الحجة.

(٢١، ٢٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ○ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي: الذين جمعوا بين هذه الشرور: الكفر بآيات الله، وتكذيب رسل الله، والجناية العظيمة على أعظم الخلق حقًّا على الخلق وهم الرسل، وأئمة الهدى الذين يأمرون الناس بالقسط، الذي اتفقت عليه الأديان والعقول.

فهؤلاء قد ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ واستحقوا العذاب الأليم، وليس لهم ناصر من عذاب الله، ولا منقذ من عقوبته.

(٢٣-٢٥) ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ○ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ○ فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ أي: ألا تنظر وتعجب من هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ و ﴿يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ الذي يصدق ما أنزله على رسله.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ عن اتباع الحق فكأنه قيل: أي داع دعاهم إلى هذا الإعراض، وهم أحق بالاتباع وأعرفهم بحقيقة ما جاء به محمد ﷺ؟ فذكر لذلك سببين:

أمنهم، وشهادتهم الباطلة لأنفسهم بالنجاة، وأن النار لا تمسهم إلا أيامًا معدودة حددوها بحسب أهوائهم الفاسدة، كأن تدبير الملك راجع إليهم حيث قالوا: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾ ومن المعلوم أن هذه أماني باطلة شرعًا وعقلًا.

والسبب الثاني: أنهم لما كذبوا بآيات الله وافتروا عليه، زين لهم الشيطان سوء عملهم، واغتروا بذلك، وتراءى لهم أنه الحق، عقوبة لهم على إعراضهم عن الحق فهؤلاء كيف يكون حالهم - إذا جمعهم الله يوم القيامة، ووفى العاملين ما عملوا وجرى عدل الله في عباده، فهنالك لا تسأل عما يصلون إليه من العقاب، وما يفوتهم من الخير والثواب، وذلك بما كسبت أيديهم: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾.

(٢٦، ٢٧) ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ○ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ يأمر تعالى نبيه ﷺ أصلًا وغيره تبعًا - أن يقول عن ربه معلنًا بتفرده بتصريف الأمور، وتدبير العالم العلوي والسفلي، واستحقاقه باختصاصه بالملك المطلق والتصريف المحكم، وأنه يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء.

فليس الأمر بأماني أهل الكتاب ولا غيرهم، بل الأمر أمر الله والتدبير له، فليس له معارض في تدبيره ولا معاون في تقديره، وأنه كما أنه المتصرف بمداولة الأيام بين الناس، فهو المتصرف بنفس الزمان.

﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ﴾ أي: يدخل هذا على هذا، ويحل هذا محل هذا ويزيد في هذا ما ينقص من هذا، ليقيم بذلك مصالح خلقه.

ويُخرج الحي من الميت كما يخرج الزروع والأشجار المتنوعة من بذورها، والمؤمن من الكافر والميت من الحي.

كما يخرج الحبوب والنوى، والزروع والأشجار، والبيضة من الطائر، فهو الذي يخرج المتضادات بعضها من بعض، وقد انقادت له جميع العناصر[1].

وقوله ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ﴾ أي: الخير كله منك ولا يأتي بالحسنات والخيرات إلا الله، وأما الشر، فإنه لا يضاف إلى الله تعالى لا وصفًا ولا اسمًا ولا فعلًا، ولكنه يدخل في مفعولاته، ويندرج في قضائه وقدره.

فالخير والشر كله داخل في القضاء والقدر، فلا يقع في ملكه إلا ما شاءه، ولكن الشر لا يضاف إلى الله فلا يقال: «بيدك الخير والشر» بل يقال: «بيدك الخير» كما قاله الله وقاله رسوله.

وأما استدراك بعض المفسرين حيث قال: «وكذلك الشر بيد الله» فإنه وهم محض ملحظهم حيث ظنوا أن تخصيص الخير بالذكر ينافي قضاءه وقدره العام، وجوابه ما فصلنا.

وقوله: ﴿وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ وقد ذكر الله في غير هذه الآية الأسباب التي ينال بها رزقه كقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ

(١) قدم الشيخ - رحمه الله - هذا الجزء من الآية، وقد آثرت إبقاءه على ما هو عليه، مع التنبيه إلى هذا التقديم.

يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ○ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾

فعلى العباد أن لا يطلبوا الرزق إلا من الله، ويسعوا فيه بالأسباب التي يسرها الله وأباحها.

(٢٨) ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ هذا نهي من الله وتحذير للمؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فإن المؤمنين بعضهم أولياء بعض والله وليهم.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ التولي ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ أي: فهو بريء من الله، والله بريء منه، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ﴾ أي: إلا أن تخافوا على أنفسكم في إبداء العداوة للكافرين فلكم - في هذه الحال - الرخصة في المسالمة والمهادنة لا في التولي الذي هو محبة القلب الذي تتبعه النصرة.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ﴾ أي: فخافوه واخشوه، وقدموا خشيته على خشية الناس، فإنه هو الذي يتولى شؤون العباد وقد أخذ بنواصيهم وإليه يرجعون، وسيصيرون إليه فيجازي من قدم خوفه ورجاءه على غيره بالثواب الجزيل، ويعاقب الكافرين ومن تولاهم بالعذاب الوبيل.

(٢٩، ٣٠) ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ○ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ يخبر تعالى بإحاطة علمه بما في الصدور، سواء أخفاه العباد أو أبدوه، كما أن علمه محيط بكل شيء في السماء والأرض، فلا تخفى عليه خافية.

ومع إحاطة علمه فهو العظيم القدير على كل شيء الذي لا يمتنع عن إرادته موجود.

ولما ذكر لهم من عظمته وسعة أوصافه، ما يوجب للعباد أن يراقبوه في كل أحوالهم، ذكر لهم أيضًا داعيًا آخر إلى مراقبته وتقواه وهو أنهم كلهم صائرون إليه وأعمالهم - حينئذ من خير وشر - محضرة.

فحينئذ يغتبط أهل الخير بما قدموا لأنفسهم، ويتحسر أهل الشر إذا وجدوا ما عملوه محضرًا، ويودون أن بينهم وبينه أمدًا بعيدًا.

فإذا عرف العبد أنه ساع إلى ربه وكادح في هذه الحياة وأنه لا بد أن يلاقي ربه ويلاقي سعيه أوجب له أخذ الحذر والتوقي من الأعمال التي توجب الفضيحة والعقوبة، والاستعداد بالأعمال الصالحة التي توجب السعادة والمثوبة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ﴾ وذلك بما يبدي لكم من أوصاف عظمته، وكمال عدله، وشدة نكاله، ومع شدة عقابه فإنه رؤوف رحيم.

ومن رأفته ورحمته أنه خوف العباد وزجرهم عن الغي والفساد كما قال تعالى - لما ذكر العقوبات -: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ فرأفته ورحمته سهلت لهم الطرق التي ينالون بها الخيرات، ورأفته ورحمته حذرتهم من الطرق التي تفضي بهم إلى المكروهات.

فنسأله تعالى أن يتمم علينا إحسانه بسلوك الصراط المستقيم، والسلامة من الطرق التي تفضي بسالكها إلى الجحيم.

(٣١، ٣٢) ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ○ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هذه الآية هي الميزان التي يعرف بها من أحب الله حقيقة، ومن ادعى ذلك دعوى مجردة، فعلامة محبة الله اتباع محمد ﷺ الذي جعل متابعته وجميع ما يدعو إليه طريقًا إلى محبته ورضوانه، فلا تنال محبة الله ورضوانه وثوابه إلا بتصديق ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة، وامتثال أمرهما واجتناب نهيهما.

فمن فعل ذلك أحبه الله وجازاه جزاء المحبين وغفر له ذنوبه وستر عليه عيوبه، فكأنه قيل: ومع ذلك فما حقيقة اتباع الرسول وصفتها؟

فأجاب بقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ﴾ بامتثال الأمر واجتناب النهي وتصديق الخبر ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن ذلك فهذا هو الكفر والله ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

(٣٣، ٣٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ○ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ إلى آخر القصة.

لله تعالى من عباده أصفياء يصطفيهم ويختارهم، ويمن عليهم بالفضائل العالية والنعوت السامية، والعلوم النافعة والأعمال الصالحة والخصائص المتنوعة، فذكر هذه البيوت الكبار وما احتوت عليه من كمل الرجال الذين حازوا أوصاف الكمال، وأن الفضل والخير تسلسل في ذراريهم، وشمل ذكورهم ونساءهم. وهذا من أجل مننه وأفضل مواقع جوده وكرمه.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعلم من يستحق الفضل والتفضيل فيضع فضله حيث اقتضت حكمته.

(٣٥، ٣٦) فلما قرر عظمة هذه البيوت ذكر قصة مريم وابنها عيسى ﷺ، وكيف تسلسلا من هذه البيوت الفاضلة وكيف تنقلت بهما الأحوال من ابتداء أمرهما إلى آخره، وأن امرأة عمران قالت - متضرعة إلى ربها، متقربة إليه بهذه القربة التي يحبها التي فيها تعظيم بيته وملازمة طاعته -: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ أي: خادمًا لبيت العبادة المشحون بالمتعبدين.

﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾ هذا العمل أي: اجعله مؤسسًا على الإيمان والإخلاص، مثمرًا للخير والثواب ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾.

كان في هذا الكلام نوع تضرع منها، وانكسار نفس حيث كان نذرها بناء على أنه يكون ذكرًا، يحصل منه من القوة والخدمة والقيام بذلك ما يحصل من أهل القوة، والأنثى بخلاف ذلك، فجبر الله قلبها، وتقبل الله نذرها، وصارت هذه الأنثى أكمل وأتم من كثير من الذكور، بل من أكثرهم، وحصل بها من المقاصد أعظم مما يحصل بالذكر، ولهذا قال:

(٣٧-٣٩) ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي: ربيت تربية عجيبة دينية أخلاقية أدبية كملت بها أحوالها، وصلحت بها أقوالها وأفعالها، ونما فيها كمالها ويسر الله لها زكريا كافلًا.

وهذا من منة الله على العبد أن يجعل من يتولى تربيته من الكاملين المصلحين.

ثم إن الله تعالى أكرم مريم وزكريا حيث يسر لمريم من الرزق الحاصل بلا كد ولا تعب، وإنما هو كرامة أكرمها الله به.

إذ ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ وهو محل العبادة وفيه إشارة إلى كثرة صلاتها وملازمتها لمحرابها ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ هنيئًا معدًا.

﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

فلما رأى زكريا هذه الحال، والبر واللطف من الله بها ذكره أن يسأل الله تعالى حصول الولد على حين اليأس منه فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ اسمه أي: الكلمة التي من الله «عيسى ابن مريم».

فكانت بشارته بهذا النبي الكريم تتضمن البشارة بـ «عيسى» ابن مريم والتصديق له، والشهادة له بالرسالة.

فهذه الكلمة من الله كلمة شريفة، اختص الله بها عيسى ابن مريم، وإلا فهي من جملة كلماته التي أوجد بها المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

وقوله: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ أي: هذا المبشر به وهو «يحيىٰ» سيد من فضلاء الرسل وكرامهم: و «الحصور» قيل: هو الذي لا يولد له، ولا شهوة له في النساء، وقيل: هو الذي عُصم وحفظ من الذنوب والشهوات الضارة، وهذا أليق المعنيين.

﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين بلغوا في الصلاح ذروته العالية.

(٤٠) ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ فهذان مانعان فمن أي طريق - يارب - يحصل لي ذلك، مع ما ينافي ذلك؟!

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ فإنه - كما اقتضت حكمته جريان الأمور بأسبابها المعروفة، فإنه قد يخرق ذلك، لأنه الفعال لما يريد الذي قد انقادت الأسباب لقدرته، ونفذت فيها مشيئته وإرادته، فلا يتعاصى على قدرته شيء من الأسباب، ولو بلغت في القوة ما بلغت.

(٤١) ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ ليحصل السرور والاستبشار وإن كنت - يارب - متيقنًا ما أخبرتني به، ولكن النفس تفرح ويطمئن القلب إلى مقدمات الرحمة واللطف.

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾، ﴿وَ﴾ في هذه المدة ﴿ٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ أول النهار وآخره، فمنع من الكلام في هذه المدة فكان في هذا مناسبة لحصول الولد من بين الشيخ الكبير والمرأة العاقر.

وكونه لا يقدر على مخاطبة الآدميين، ولسانه منطلق بذكر الله وتسبيحه آية أخرى.

فحينئذ حصل له الفرح والاستبشار وشكر الله. وأكثر من الذكر والتسبيح بالعشايا والأبكار.

وكان هذا المولود من بركات مريم بنت عمران على زكريا، فإن ما منَّ الله به عليها من ذلك الرزق الهني الذي يحصل بغير حساب، ذكره وهيجه على التضرع والسؤال، والله تعالى هو المتفضل بالسبب والمسبب، ولكنه يقدر أمورًا محبوبة على يد من يحبه ليرفع الله قدره ويعظم أجره.

(٤٢) ثم عاد تعالى إلى ذكر مريم، وأنها بلغت في العبادة

والكمال مبلغًا عظيمًا فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ أي: اختارك ووهب لك من الصفات الجليلة والأخلاق الجميلة.

﴿وَطَهَّرَكِ﴾ من الأخلاق الرذيلة ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ ولهذا قال ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام».

(٤٣) فنادتها الملائكة عن أمر الله لها بذلك لتغتبط بنعم الله وتشكر الله وتقوم بحقوقه، وتشتغل بخدمته، ولهذا قالت الملائكة: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ أي: أكثري من الطاعة والخضوع والخشوع لربك، وأديمي ذلك ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي: صلي مع المصلين، فقامت بكل ما أمرت به وبرزت وفاقت في كمالها.

ولما كانت هذه القصة وغيرها من أكبر الأدلة على رسالة محمد ﷺ حيث أخبر بها مفصلة محققة لا زيادة فيها ولا نقص، وما ذاك إلا لأنه وحي من الله العزيز الحكيم لا بتعلم من الناس - قال تعالى -: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ حيث جاءت بها أمها فاختصموا أيهم يكفلها، لأنها بنت إمامهم ومقدمهم، وكلهم يريد الخير والأجر من الله، حتى وصلت بهم الخصومة إلى أن اقترعوا عليها، فألقوا أقلامهم مقترعين، فأصابت القرعة زكريا رحمة من الله به وبها.

فأنت - يا أيها الرسول - لم تحضر تلك الحالة لتعرفها فتقصها على الناس وإنما الله نبأك بها، وهذا هو المقصود الأعظم من سياق القصص، أنه يحصل بها العبرة وأعظم العبر، الاستدلال بها على التوحيد والرسالة والبعث، وغيرها من الأصول الكبار.

(٤٥) ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: له الوجاهة، والجاه العظيم في الدنيا والآخرة عند الخلق.

ومع ذلك فهو - عند الله - من المقربين، الذين هم أقرب الخلائق إلى الله، وأعلاهم درجة وهذه بشارة لا يشبهها شيء من البشارات.

(٤٦) ومن تمام هذه البشارة أنه: ﴿يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ فيكون تكليمه آية من آيات الله، ورحمة منه بأمه وبالخلق ﴿و﴾ كذلك يكلمهم ﴿كهلًا﴾ أي: في حال كهولة، وهذا تكليم النبوة والدعوة والإرشاد.

فكلامه في المهد فيه آيات وبراهين على صدقه ونبوته، وبراءة أمه مما يظن بها من الظنون السيئة، وكلامه في كهولته فيه نفعه العظيم للخلق، وكونه واسطة بينهم وبين ربهم في وحيه وتبليغ دينه وشرعه.

ومع ذلك فهو ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين أصلح الله قلوبهم بمعرفته وحبه وألسنتهم بالثناء عليه وذكره، وجوارحهم بطاعته وخدمته.

(٤٧) ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ وهذا من الأمور المستغربة ﴿قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ ليعلم العباد أنه على كل شيء قدير وأنه لا ممانع لإرادته.

(٤٧، ٤٨) ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ○ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾ أي: جنس الكتب السابقة، والحكم بين الناس ويعطيه النبوة.

(٤٩) ﴿و﴾ يجعله ﴿رَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ويؤيده بالآيات البينات والأدلة القاهرة حيث قال: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ تدلكم أني رسول الله حقًّا.

وذلك ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾ وهو ممسوح العينين، الذي فقد بصره وعينيه ﴿وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ○ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ فأيده الله بجنسين من الآيات والبراهين الخوارق المستغربة التي لا يمكن لغير الأنبياء الإتيان بها، والرسالة والدعوة والدين الذي جاء به وأنه دين التوراة ودين الأنبياء السابقين، وهذا أكبر الأدلة على صدق الصادقين.

فإنه لو كان من الكاذبين لخالف ما جاءت به الرسل، ولناقضهم في أصولهم وفروعهم، فعلم بذلك أنه رسول الله، وأن ما جاء به حق لا ريب فيه.

وأيضًا فقوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ولأخفف عنكم بعض الآصار والأغلال.

(٥٠، ٥١) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ○ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ وهذا ما يدعو إليه جميع الرسل: عبادة الله وحده لا شريك له وطاعتهم.

وهذا هو الصراط المستقيم الذي من يسلكه أوصله إلى جنات النعيم، فحينئذ اختلفت أحزاب بني إسرائيل في عيسى، فمنهم من آمن به واتبعه، ومنهم من كفر به وكذبه، ورمى أمه بالفاحشة كاليهود.

(٥٢) ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ والاتفاق على رد دعوته ﴿قَالَ﴾: نادبًا لبني إسرائيل على مؤازرته ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ أي: الأنصار.

﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ وهذا من منة الله عليهم وعلى عيسى، حيث ألهم هؤلاء الحواريين الإيمان به، والانقياد لطاعته، والنصرة لرسوله.

(٥٣) ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ وهذا التزام تام للإيمان بكل ما أنزل الله، ولطاعة رسوله.

﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ لك بالوحدانية ولنبيك بالرسالة ولدينك بالحق والصدق.

(٥٤) وأما من أحس عيسى منهم الكفر وهم جمهور بني إسرائيل، فإنهم ﴿مَكَرُوا﴾ بعيسى ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ بهم ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ فاتفقوا على قتله وصلبه وشبه لهم شبه عيسى.

(٥٥) فقبضوا على من شبّه لهم به وقال الله لعيسى: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فرفعه الله إليه وطهره من الذين كفروا وصلبوا من قتلوه ظانين أنه عيسى وباؤوا بالإثم العظيم.

وسينزل عيسى ابن مريم في آخر هذه الأمة حكمًا عدلًا يقتل الخنزير ويكسر الصليب ويتبع ما جاء به محمد ﷺ ويعلم الكاذبون غرورهم وخداعهم، وأنهم مغرورون مخدوعون.

وقوله: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ المراد بمن اتبعه: الطائفة التي آمنت به ونصرهم الله على من انحرف عن دينه.

ثم لما جاءت أمة محمد ﷺ فكانوا هم أتباعه حقًا، فأيدهم الله ونصرهم على الكفار كلهم، وأظهرهم بالدين الذي جاءهم به محمد ﷺ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية.

ولكن حكمة الله عادلة فإنها اقتضت أن من تمسك بالدين نصره الله النصر المبين، وأن من ترك أمره ونهيه ونبذ شرعه وتجرأ على معاصيه إنه يعاقبه ويسلط عليه الأعداء والله عزيز حكيم.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

(٥٦، ٥٧) فقد بين ما يفعله بهم فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ○ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وهذا الجزاء عام لكل من اتصف بهذه الأوصاف من جميع أهل الأديان السابقة.

ثم لما بعث سيد المرسلين وخاتم النبيين ونسخت رسالته الرسالات كلها، ونسخ دينه جميع الأديان، صار المتمسك بغير هذا الدين من الهالكين.

(٥٨) وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي: هذا القرآن العظيم الذي فيه نبأ الأولين والآخرين والأنبياء والمرسلين - هو آيات الله البينات وهو الذي يذكر العباد كل ما يحتاجونه، وهو الحكيم المحكم، صادق الأخبار حسن الأحكام.

(٥٩-٦٢) ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ○ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ○ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ○ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ لما ذكر قصة مريم وعيسى ونبأهما الحق، وأنه عبد أنعم الله عليه، وأن من زعم أن فيه شيئًا من الإلهية فقد كذب على الله وكذب جميع أنبيائه وكذب عيسى ﷺ فإنه الشبهة التي عرضت لمن اتخذه إلهًا شبهة باطلة، فلو كان لها وجه صحيح لكان آدم أحق منه فإنه خلق من دون أم ولا أب، ومع ذلك فاتفق البشر كلهم على أنه عبد من عباد الله فدعوى إلهية عيسى بكونه خلق من أم بلا أب دعوى من أبطل الدعاوى.

وهذا هو الحق الذي لا ريب فيه أن عيسى - كما قال عن نفسه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ وكان قد قدم على النبي ﷺ وفد نصارى نجران وقد تصلبوا على باطلهم، بعدما أقام عليهم النبي ﷺ البراهين بأن عيسى عبدالله ورسوله حيث زعموا إلهيته.

فوصلت به وبهم الحال إلى أن أمره الله تعالى أن يباهلهم، فإنه قد اتضح لهم الحق ولكن العناد والتعصب منعاهم منه.

فدعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة بأن يحضر هو وأهله وأبناؤه، وهم يحضرون بأهلهم وأبنائهم، ثم يدعون الله تعالى أن ينزل عقوبته ولعنته على الكاذبين فتشاوروا هل يجيبونه إلى ذلك؟

فاتفق رأيهم أن لا يجيبوه لأنهم عرفوا أنه نبي الله حقًّا وأنهم - إن باهلوه - هلكوا هم وأولادهم وأهلوهم، فصالحوه وبذلوا له الجزية، وطلبوا منه الموادعة والمهادنة.

فأجابهم ﷺ ولم يحرجهم، لأنه حصل المقصود من وضوح الحق، وتبين عنادهم حيث صمموا على الامتناع عن

المباهلة، وذلك يبرهن على أنهم كانوا ظالمين.

(٦٢) ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الذي لا ريب فيه ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي قهر بقدرته وقوته جميع الموجودات وأذعنت له سكان الأرض والسماوات.

ومع ذلك فهو ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها[1].

(٦٤) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ هذه الآية الكريمة، كان النبي ﷺ يكتب بها إلى ملوك أهل الكتاب، وكان يقرأ أحيانًا في الركعة الأولى من سنة الفجر: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الآية.

ويقرأ بها في الركعة الآخرة من سنة الصبح، لاشتمالها على الدعوة إلى دين واحد، قد اتفق عليه الأنبياء والمرسلون واحتوت على توحيد الإلهية المبني على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن يعتقد أن البشر وجميع الخلق كلهم في طور البشرية، لا يستحق منهم أحد شيئًا من خصائص الربوبية، ولا من نعوت الإلهية.

فإن انقاد أهل الكتاب وغيرهم إلى هذا فقد اهتدوا.

وإن ﴿تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ كقوله تعالى ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إلى آخرها.

(٦٥-٦٨) ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ○ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ○ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ○ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كانت الأديان كلها: اليهود والنصارى والمشركون، وكذلك المسلمون كلهم يدعون أنهم على ملة إبراهيم.

فأخبر الله تعالى أن أولى الناس به محمد ﷺ وأتباعه وأتباع الخليل، قبل محمد ﷺ.

وأما اليهود والنصارى والمشركون فإبراهيم بريء منهم ومن ولايتهم، لأن دينه الحنيفية السمحة التي فيها الإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب، وهذه خصيصة المسلمين.

وأما دعوى اليهود والنصارى أنهم على ملة إبراهيم فقد علم أن اليهودية والنصرانية التي هم يدعون أنهم عليها، لم تؤسس إلا بعد الخليل.

فكيف يحاجون في هذا الأمر الذي يعلم به كذبهم وافتراؤهم؟! فهب أنهم حاجوا فيما لهم به علم، فكيف يحاجون في هذه الحالة؟ فهذا قبل أن ينظر ما احتوى عليه قولهم من البطلان، يُعلم فساد دعواهم.

وفي هذه الآية دليل على أنه لا يحل للإنسان أن يقول أو يجادل فيما لا علم له به.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فكلما قوي إيمان العبد تولاه الله بلطفه ويسره لليسرى وجنبه العسرى.

(٦٩-٧٤) ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ○ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ○ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ○ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ○ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ○ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ هذا من منة الله على هذه الأمة حيث أخبرهم بمكر أعدائهم من أهل الكتاب وأنهم - من حرصهم على إضلال المؤمنين - ينوعون المكرات الخبيثة.

فقالت طائفة منهم: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: أوّله وارجعوا عن دينهم آخر النهار، فإنهم - إذا رأوكم راجعين وهم يعتقدون فيكم العلم استرابوا بدينهم، وقالوا: لولا أنهم رأوا فيه ما لا يعجبهم ولا يوافق الكتب السابقة لم يرجعوا.

هذا مكرهم والله تعالى هو الذي يهدي من يشاء، وهو الذي بيده الفضل يختص به من يشاء فخصَّكم - يا هذه الأمة - بما لم يخص به غيركم.

ولم يدر هؤلاء الماكرون أن دين الله حق إذا وصلت حقيقته إلى القلوب لم يزدد صاحبه - على طول المدى - إلا إيمانًا ويقينًا.

ولم تزده الشبه إلا تمسكًا بدينه وحمدًا لله، وثناء عليه حيث منَّ به عليه.

وقولهم: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ يعني: أن الذي حملهم على هذه الأعمال المنكرة الحسد والبغي، وخشية الاحتجاج عليهم.

كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ

---

(١) لم يفسر - رحمه الله - الآية الثالثة والستين، وقد قام النجار بإضافة تفسيرها من عنده.

يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ الآية.

(٧٥، ٧٦) ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ○ بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ يخبر تعالى عن أهل الكتاب أن منهم طائفة أمناء بحيث لو أمنته على قناطير من النقود، وهي المال الكثير يؤده إليك ومنهم طائفة خونة يخونك في أقل القليل. ومع هذه الخيانة الشنيعة فإنهم يتأولون بالأعذار الباطلة فيقولون: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾ أي: ليس علينا جناح إذا خناهم واستبحنا أموالهم، لأنهم لا حرمة لهم.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ أن عليهم أشد الحرج فجمعوا بين الخيانة وبين احتقار العرب، وبين الكذب على الله وهم يعلمون ذلك ليسوا كمن فعل ذلك جهلًا وضلالًا.

ثم قال تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: ليس الأمر كما قالوا. فإنه ﴿مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾ أي: قام بحقوق الله وحقوق خلقه، فإن هذا هو المتقي والله يحبه. أي: ومن كان بخلاف ذلك فلم يف بعهده وعقوده، التي بينه وبين الخلق، ولا قام بتقوى الله فإن الله يمقته وسيجازيه على ذلك أعظم النكال.

(٧٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي: إن الذين يشترون الدنيا بالدين، فيختارون الحطام القليل من الدنيا ويتوسلون إليها بالأيمان الكاذبة، والعهود المنكوثة فهؤلاء ﴿لَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي: قد حق عليهم سخط الله، ووجب عليهم عقابه وحرموا ثوابه ومنعوا من التزكية وهي التطهير.

بل يردون القيامة وهم متلوثون بالجرائم، متدنسون بالذنوب والعظائم.

(٧٨) ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: وإن من أهل الكتاب فريقًا هم محرفون لكتاب الله، ﴿يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهذا يشمل التحريف اللفظي، والتحريف المعنوي.

ثم هم - مع هذا التحريف الشنيع - يوهمون أنه من الكتاب وهم كذبة في ذلك ويصرحون بالكذب على الله وهم يعلمون حالهم وسوء مغبتهم.

(٧٩، ٨٠) ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ○ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أي: يمتنع ويستحيل كل الاستحالة لبشر من الله عليه بالوحي والكتاب والنبوة، وأعطاه الحكم الشرعي - أن يأمر الناس بعبادته، ولا بعبادة النبيين والملائكة واتخاذهم أربابًا، لأن هذا هو الكفر فكيف وقد بعث بالإسلام المنافي للكفر من كل وجه، فكيف يأمر بضده؟!!

هذا من الممتنع لأن حاله وما هو عليه وما منَّ الله به عليه من الفضائل والخصائص تقتضي العبودية الكاملة والخضوع التام لله الواحد القهار.

وهذا جواب لوفد نجران حين تمادى بهم الغرور، ووصلت بهم الحال والكبر أن قالوا: أتأمرنا - يامحمد - أن نعبدك؟ حين أمرهم بعبادة الله وطاعته، فبيّن الباري انتفاء ما قالوا، وأن كلامهم وكلام أمثالهم في هذا ظاهر البطلان.

(٨١، ٨٢) ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ○ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ هذا إخبار منه تعالى أنه أخذ عهد النبيين وميثاقهم كلهم بسبب ما أعطاهم ومنَّ به عليهم، من الكتاب والحكمة المقتضي للقيام التام بحق الله وتوفيته، أنه إن جاءهم رسول مصدق لما معهم بعث بما بعثوا به من التوحيد والحق والقسط، والأصول التي اتفقت عليها الشرائع أنهم يؤمنون به وينصرونه.

فأقروا على ذلك واعترفوا، والتزموا وأشهدهم وشهد عليهم، وتوعد من خالف هذا الميثاق.

وهذا أمر عام بين الأنبياء أن جميعهم طريقهم واحد، وأن دعوة كل واحد منهم قد اتفقوا وتعاهدوا عليها، وعموم ذلك أنه أخذ على جميعهم الميثاق بالإيمان والنصرة لمحمد ﷺ.

فمن ادعى أنه من أتباعهم فهذا دينهم الذي أخذه الله عليهم، وأقروا به واعترفوا. فمن تولى عن اتباع محمد ممن يزعم أنه من أتباعهم، فإنه فاسق خارج عن طاعة الله، مكذب للرسول - الذي يزعم أنه من أتباعه - مخالف لطريقه.

وفي هذا إقامة الحجة والبرهان على كل من لم يؤمن

بمحمد ﷺ من أهل الكتب والأديان، وأنه لا يمكنهم الإيمان برسلهم الذين يزعمون أنهم أتباعهم حتى يؤمنوا بإمامهم وخاتمهم ﷺ.

(٨٣-٨٥) ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۞ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۞ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ قد تقدم في سورة البقرة أن هذه الأصول التي هي أصول الإيمان التي أمر الله بها هذه الأمة، قد اتفقت عليها الكتب والرسل، وأنها هي الفرض الموجه لكل أحد، وأنها هي الدين والإسلام الحقيقي، وأن من ابتغى غيرها فعمله مردود، وليس له دين يعول عليه.

فمن زهد عنه ورغب عنه فأين يذهب؟ إلى عبادة الأشجار والأحجار والنيران؟ أو إلى اتخاذ الأحبار والرهبان والصلبان، أو إلى التعطيل لرب العالمين؟ أو إلى الأديان الباطلة، التي هي من وحي الشياطين؟ وهؤلاء كلهم - في الآخرة - من الخاسرين.

(٨٦-٩١) ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۞ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يعني: أنه يبعد كل البعد أن يهدي الله قومًا عرفوا الإيمان، ودخلوا فيه وشهدوا أن الرسول حق، ثم ارتدوا على أعقابهم ناكصين ناكثين لأنهم عرفوا الحق فرفضوه.

ولأن من هذه الحالة وصفه، فإن الله يعاقبه بالانتكاس وانقلاب القلب جزاء له، إذ عرف الحق فتركه والباطل فآثره، فولاه الله ما تولى لنفسه.

فهؤلاء ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ خالدين في اللعنة والعذاب ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ إذا جاءهم أمر الله، لأن الله عمرهم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءهم النذير.

ثم إنه تعالى استثنى من هذا الوعيد التائبين من كفرهم وذنوبهم، المصلحين لعيوبهم فإن الله يغفر لهم ما قدموه ويعفو عنهم ما أسلفوه.

ولكن من كفر وأصرّ على كفره، ولم يزدد إلا كفرًا حتى مات على كفره، فهؤلاء هم الضالون عن طريق الهدى السالكون لطريق الشقاء، وقد استحقوا بهذا العذاب الأليم، فليس لهم ناصر من عذاب الله، ولو بذلوا ملء الأرض ذهبًا ليفتدوا به لم ينفعهم شيئًا فعياذًا بالله من الكفر وفروعه.

(٩٢) ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ يعني: لن تنالوا وتدركوا البر الذي هو اسم جامع للخيرات، وهو الطريق الموصل إلى الجنة، حتى تنفقوا مما تحبون من أطيب أموالكم وأزكاها.

فإن النفقة من الطيب المحبوب للنفوس، من أكبر الأدلة على سماحة النفس، واتصافها بمكارم الأخلاق ورحمتها ورقتها.

ومن أدل الدلائل على محبة الله، وتقديم محبته على محبة الأموال، التي جبلت النفوس على قوة التعلق بها، فمن آثر محبة الله على محبة نفسه، فقد بلغ الذروة العليا من الكمال، وكذلك من أنفق الطيبات وأحسن إلى عباد الله، أحسن الله إليه ووفقه أعمالًا وأخلاقًا لا تحصل بدون هذه الحالة.

وأيضًا فمن قام بهذه النفقة على هذا الوجه كان قيامه ببقية الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة من طريق الأولى والأحرى، ومع أن النفقة من الطيبات هي أكمل الحالات، فمهما أنفق العبد من نفقة قليلة أو كثيرة من طيب أو غيره فإن الله به عليم.

وسيجزي كل منفق بحسب عمله سيجزيه في الدنيا بالخلف العاجل، وفي الآخرة بالنعيم الآجل.

(٩٣، ٩٤) ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ من جملة الأمور التي قدح فيها اليهود بنبوة عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم، أنهم زعموا أن النسخ باطل، وأنه لا يمكن أن يأتي نبي يخالف النبي الذي قبله.

فكذبهم الله بأمر يعرفونه، فإنهم يعترفون بأن جميع الطعام - قبل نزول التوراة - كان حلالًا لبني إسرئيل إلا أشياء يسيرة حرمها إسرائيل - وهو: يعقوب عليه السلام - على نفسه ومنعها إياه لمرض أصابه.

ثم إن التوراة فيها من التحريمات التي نسخت ما كان حلا

قبل ذلك شيء كثير.

قل لهم - إن أنكروا ذلك -: ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ بزعمكم أنه لا نسخ ولا تحليل ولا تحريم.

وهذا من أبلغ الحجج أن يحتج على الإنسان بأمر يقوله ويعترف به ولا ينكره، فإن انقاد للحق فهو الواجب، وإن أبى ولم ينقد بعد هذا البيان تبين كذبه وافتراؤه وظلمه، وبطلان ما هو عليه وهو الواقع من اليهود.

(٩٥) ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: قل صدق الله في كل ما قاله، ومن أصدق من الله قيلًا وحديثًا، وقد بيَّن في هذه الآيات من الأدلة على صحة رسالة محمد ﷺ، وبراهين دعوته وبطلان ما عليه المنحرفون من أهل الكتاب، الذين كذبوا رسوله وردوا دعوته فقد صدق الله في ذلك، وأقنع عباده على ذلك ببراهين وحجج، تتصدع لها الجبال وتخضع لها الرجال.

فتعين عند ذلك على الناس كلهم اتباع ملة إبراهيم، من توحيد الله وحده لا شريك له، وتصديق كل رسول أرسله الله وكل كتاب أنزله، والإعراض عن الأديان الباطلة المنحرفة.

فإن إبراهيم كان معرضًا عن كل ما يخالف التوحيد، متبرئًا من الشرك وأهله.

(٩٦، ٩٧) ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ○ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ يخبر تعالى بعظمة بيته الحرام، وأنه أول البيوت التي وضعها الله في الأرض لعبادته وإقامة ذكره وأن فيه من البركات وأنواع الهدايات وتنوع المصالح والمنافع للعالمين - شيء كثير وفضل غزير، وأن فيه آيات بينات تذكر بمقامات إبراهيم الخليل وتنقلاته في الحج، ومن بعده تذكر بمقامات سيد الرسل وإمامهم.

وفيه الأمن[1] الذي من دخله كان آمنًا قدرًا، مؤمنًا شرعًا ودينًا.

فلما احتوى على هذه الأمور التي هذه مجملاتها وتكثر تفصيلاتها - أوجب الله حجه على المكلفين المستطيعين إليه سبيلًا، وهو الذي يقدر على الوصول إليه بأي مركوب يناسبه وزادٍ يتزوده، ولهذا أتى بهذا اللفظ الذي يمكنه تطبيقه على جميع المركوبات الحادثة، والتي ستحدث.

وهذا من آيات القرآن حيث كانت أحكامه صالحة لكل زمان وكل حال، ولا يمكن الصلاح التام بدونها، فمن أذعن لذلك وقام به فهو من المهتدين المؤمنين، ومن كفر فلم يلتزم حج بيته فهو خارج عن الدين، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين.

(٩٨، ٩٩) ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ○ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لما أقام - فيما تقدم - الحجج على أهل الكتاب - مع أنهم قبل ذلك يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم - وبَّخ المعاندين منهم بكفرهم بآيات الله، وصدهم الخلق عن سبيل الله، لأن عوامهم تبع لعلمائهم، والله تعالى يعلم أحوالهم، وسيجازيهم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

(١٠٠، ١٠١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ○ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لما أقام الحجج على أهل الكتاب ووبخهم بكفرهم وعنادهم، حذر عباده المؤمنين عن الاغترار بهم، وبين لهم أن هذا الفريق منهم حريصون على إضراركم وردكم إلى الكفر بعد الإيمان.

ولكن - ولله الحمد - أنتم - يامعشر المؤمنين - بعدما منَّ الله عليكم بالدين، ورأيتم آياته ومحاسنه ومناقبه وفضائله، وفيكم رسول الله الذي أرشدكم إلى جميع مصالحكم، واعتصمتم بالله وبحبله - الذي هو دينه - يستحيل أن يردوكم عن دينكم لأن الدين الذي بني على هذه الأصول والدعائم الثابتة الأساس المشرقة الأنوار تنجذب إليه الأفئدة، ويأخذ بمجامع القلوب، ويوصل العباد إلى أجل غاية وأفضل مطلوب.

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾ أي: يتوكل عليه ويحتمي بحماه ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهذا فيه الحث على الاعتصام به، وأنه السبيل إلى السلامة والهداية.

(١٠٢-١٠٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ○ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ○ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ○ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هذه الآيات فيها حث الله عباده المؤمنين أن يقوموا

(١) مراد المؤلف - رحمه الله - في أي من الحرم: الأمن وقد غيرت الكلمة في المطبوع إلى: وفيه الحرم الذي من دخله.

بشكر نعمه العظيمة بأن يتقوه حق تقواه، وأن يقوموا بطاعته وترك معصيته مخلصين له بذلك وأن يقيموا دينهم ويستمسكوا بحبله الذي أوصله إليهم، وجعله السبب بينهم وبينه وهو دينه وكتابه، والاجتماع على ذلك وعدم التفرق، وأن يستديموا ذلك إلى الممات.

وذكَّرهم ما هم عليه قبل هذه النعمة وهو: أنهم كانوا أعداء متفرقين، فجمعهم بهذا الدين وألف بين قلوبهم، وجعلهم إخوانًا وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم من الشقاء ونهج بهم طريق السعادة.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى شكر الله والتمسك بحبله، وأمرهم بتتميم هذه الحالة، والسبب الأقوى الذي يتمكنون به من إقامة دينهم بأن يتصدى منهم طائفة يحصل فيها الكفاية.

﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ وهو الدين أصوله، وفروعه وشرائعه ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهو ما عرف حسنه شرعًا وعقلًا ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وهو ما عرف قبحه شرعًا وعقلًا ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ المدركون لكل مطلوب الناجون من كل مرهوب.

ويدخل في هذه الطائفة أهل العلم والتعليم، والمتصدون للخطابة ووعظ الناس عمومًا وخصوصًا، والمحتسبون الذين يقومون بإلزام الناس بإقامة الصلوات وإيتاء الزكاة، والقيام بشرائع الدين وينهونهم عن المنكرات.

فكل من دعا الناس إلى خير على وجه العموم أو على وجه الخصوص أو قام بنصيحة عامة أو خاصة فإنه داخل في هذه الآية الكريمة.

ثم نهاهم عن سلوك مسلك المتفرقين الذين جاءهم الدين والبينات الموجب لقيامهم به واجتماعهم، فتفرقوا واختلفوا وصاروا شيعًا ولم يصدر ذلك عن جهل وضلال، وإنما صدر عن علم وقصد سيء، وبغي من بعضهم على بعض ولهذا قال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

(١٠٦، ١٠٧) ثم بيَّن متى يكون هذا العذاب العظيم ويمسهم هذا العذاب الأليم فقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

يخبر تعالى بتفاوت الخلق يوم القيامة، في السعادة والشقاوة وأنه تبيض وجوه أهل السعادة الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله، وامتثلوا أمره واجتنبوا نهيه، وأن الله تعالى يدخلهم الجنات، ويفيض عليهم أنواع الكرامات، وهم فيها خالدون.

وتسود وجوه أهل الشقاوة الذين كذبوا رسله وعصوا أمره، وفرقوا دينهم شيعًا وأنهم يوبخون فيقال لهم: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ فكيف اخترتم الكفر على الإيمان؟! ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

(١٠٨، ١٠٩) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ۝ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ يثني تعالى على ما قصه على نبيه من آياته، التي حصل بها الفرقان بين الحق والباطل وبين أولياء الله وأعدائه وما أعده لهؤلاء من الثواب وللآخرين من العقاب، وأن ذلك مقتضى فضله وعدله وحكمته، وأنه لم يظلم عباده، ولم ينقصهم من أعمالهم أو يعذب أحدًا بغير ذنبه أو يحمل عليه وزر غيره.

ولما ذكر أن له الأمر والشرع ذكر أن له تمام الملك والتصرف والسلطان فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فيجازي المحسنين بإحسانهم والمسيئين بعصيانهم.

وكثيرًا ما يذكر الله أحكامه الثلاثة مجتمعة يبين لعباده أنه الحاكم المطلق، فله الأحكام القدرية والأحكام الشرعية والأحكام الجزائية، فهو الحاكم بين عباده في الدنيا والآخرة.

ومن سواه من المخلوقات محكوم عليها ليس لها من الأمر شيء.

(١١٠، ١١١) ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ هذا تفضيل من الله لهذه الأمة بهذه الأسباب التي تميزوا بها وفاقوا بها سائر الأمم، وأنهم خير الناس للناس نصحًا ومحبة للخير، ودعوة وتعليمًا وإرشادًا، وأمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر، وجمعًا بين تكميل الخلق والسعي في منافعهم بحسب الإمكان، وبين تكميل النفس بالإيمان بالله والقيام بحقوق الإيمان.

وأن أهل الكتاب لو آمنوا بمثل ما آمنتم به لاهتدوا وكان خيرًا لهم، ولكن لم يؤمن منهم إلا القليل، وأما الكثير فهم فاسقون خارجون عن طاعة الله، وطاعة رسوله، محاربون للمؤمنين، ساعون في إضرارهم بكل مقدورهم، ومع ذلك فلن يضروا المؤمنين إلا أذى باللسان، وإلا فلو قاتلوهم لولوا

الأدبار ثم لا ينصرون.

وقد وقع ما أخبر الله به فإنهم لما قاتلوا المسلمين ولوا الأدبار ونصر الله المسلمين عليهم.

(١١٢) ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ هذا إخبار من الله تعالى أن اليهود ضربت عليهم الذلة، فهم خائفون أينما ثقفوا ولا يؤمنهم شيء إلا معاهدة وسبب يأمنون به يرضخون لأحكام الإسلام، ويعترفون بالجزية.

أو ﴿بِحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ أي: إذا كانوا تحت ولاية غيرهم ونظارتهم [كما شوهد حالهم سابقًا ولاحقًا، فإنهم لم يتمكنوا في الوقت الأخير من الملك المؤقت في فلسطين، إلا بنصر الدول الكبرى وتمهيدهم لهم كل سبب][1].

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: قد غضب الله عليهم وعاقبهم بالذلة والمسكنة، والسبب في ذلك كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق أي: ليس ذلك عن جهل، وإنما هو بغي وعناد.

تلك العقوبات المتنوعة عليهم ﴿بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ فالله تعالى لم يظلمهم ويعاقبهم بغير ذنب، وإنما الذي أجراه عليهم بسبب بغيهم وعدوانهم، وكفرهم وتكذيبهم للرسل وجناياتهم الفظيعة.

(١١٣-١١٥) ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ اللَّهِ ءَانَآءَ الَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى الْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ۝ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌۢ بِالْمُتَّقِينَ﴾ لما ذكر الله المنحرفين من أهل الكتاب بيَّن حالة المستقيمين منهم، وأن منهم أمة مقيمين لأصول الدين وفروعه.

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو الخير كله، وينهون عن المنكر وهو جميع الشر. كما قال تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾.

﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى الْخَيْرَٰتِ﴾ والمسارعة إلى الخيرات قدر زائد على مجرد فعلها فهو وصف لهم بفعل الخيرات، والمبادرة إليها وتكميلها بكل ما تتم به من واجب ومستحب.

ثم بين تعالى أن كل ما فعلوه من خير قليل أو كثير فإن الله تعالى سيقبله حيث كان صادرًا عن إيمان وإخلاص ﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ يعني: لن ينكر ما عملوه ولن يهدر.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌۢ بِالْمُتَّقِينَ﴾ وهم الذين قاموا بالخيرات وتركوا المحرمات لقصد رضا الله وطلب ثوابه.

(١١٦، ١١٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْـًٔا وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بيَّن تعالى أن الكفار الذين كفروا بآيات الله، وكذبوا رسله أنه لا ينقذهم من عذاب الله منقذ ولا ينفعهم نافع، ولا يشفع لهم عند الله شافع، وأن أموالهم وأولادهم التي كانوا يعدونها للشدائد والمكاره لا تفيدهم شيئًا، وأن نفقاتهم التي أنفقوها في الدنيا لنصر باطلهم ستضمحل.

وأن مثلها ﴿كَمَثَلِ﴾ حرث أصابته ﴿رِيحٍ﴾ شديدة ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ أي: برد شديد - أو نار محرقة - فأهلكت ذلك الحرث وذلك بظلمهم، فلم يظلمهم الله ويعاقبهم بغير ذنب وإنما ظلموا أنفسهم.

وهذه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾.

(١١٨-١٢٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۝ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ هذا تحذير من الله لعباده عن ولاية الكفار واتخاذهم بطانة، أو خصيصة وأصدقاء يسرون إليهم ويفضون لهم بأسرار المؤمنين، فوضح لعباده المؤمنين الأمور الموجبة للبراءة من اتخاذهم بطانة بأنهم لا يألونكم خبالًا أي: هم حريصون غير مقصرين في إيصال الضرر بكم، وقد بدت البغضاء من كلامهم، وفلتات ألسنتهم، وما تخفيه صدورهم من البغضاء والعداوة أكبر مما ظهر لكم من أقوالهم وأفعالهم.

فإن كانت لكم فهوم وعقول فقد وضح الله لكم أمرهم.

---

(١) قد يشكل - على القارىء - هذا الموضع إذ هو عن ملك اليهود لفلسطين مع أن الشيخ ألف التفسير قبل ذلك، ولكن هذه الجمل الموضوعة بين القوسين المركنين زيادة من هامش النسخة، لعل الشيخ كتبها بعد سنين من كتابته التفسير، والله أعلم.

وأيضًا فما الموجب لمحبتهم واتخاذهم أولياء وبطانة، وقد تعلمون منهم الانحراف العظيم في الدين، وفي مقابلة إحسانكم؟

فأنتم مستقيمون على أديان الرسل، تؤمنون بكل رسول أرسله الله، وبكل كتاب أنزله الله، وهم يكفرون بأجلّ الكتب وأشرف الرسل، وأنتم تبذلون لهم من الشفقة والمحبة ما لا يكافئونكم على أقل القليل منه. فكيف تحبونهم وهم لا يحبونكم، وهم يداهنونكم وينافقونكم فإذا لقوكم قالوا آمنا، وإذا خلوا مع بني جنسهم عضوا عليكم الأنامل من شدة الغيظ والبغض لكم ولدينكم.

قال تعالى: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ أي: سترون من عز الإسلام وذل الكفر ما يسوؤكم وتموتون بغيظكم، فلن تدركوا شفاء ذلك بما تقصدون.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فلذلك بيَّن لعباده المؤمنين ما تنطوي عليه صدور أعداء الدين من الكفار والمنافقين.

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾ عز ونصر وعافية وخير ﴿تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ من إدالة العدو أو حصول بعض المصائب الدنيوية ﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾ وهذا وصف العدو الشديد عداوته.

لمَّا بين تعالى شدة عداوتهم وشرح ما هم عليه من الصفات الخبيثة أمر عباده المؤمنين بالصبر ولزوم التقوى وأنهم إذا قاموا بذلك فلن يضرهم كيد أعدائهم شيئًا فإن الله محيط بهم وبأعمالهم وبمكائدهم التي يكيدونكم فيها.

وقد وعدكم عند القيام بالتقوى أنهم لا يضرونكم شيئًا فلا تشكوا في حصول ذلك.

(١٢١-١٢٣) ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ إلى آخر القصة. وذلك يوم «أُحُد» حين خرج ﷺ بالمسلمين حين وصل المشركون - بجمعهم - إلى قريب من «أحد» فنزَّلهم ﷺ منازلهم ورتبهم في مقاعدهم، ونظمهم تنظيمًا عجيبًا يدل على كمال رأيه وبراعته الكاملة في فنون السياسة والحرب، كما كان كاملًا في كل المقامات.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أموركم.

﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ وهم بنو سلمة وبنو حارثة لكن تولاهما الباري بلطفه ورعايته وتوفيقه.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم إذا توكلوا عليه كفاهم وأعانهم، وعصمهم من وقوع ما يضرهم في دينهم ودنياهم.

وفي هذه الآية ونحوها وجوب التوكل، وأنه على حسب إيمان العبد يكون توكله والتوكل هو اعتماد العبد على ربه في حصول منافعه ودفع مضاره، فلما ذكر حالهم في «أُحُد» وما جرى عليهم من المصيبة، أدخل فيها تذكيرهم بنصره ونعمته عليهم يوم «بدر» ليكونوا شاكرين لربهم وليخفف هذا هذا فقال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ في عَددكم وعُددكم فكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر في قلة ظهر، ورثاثة سلاح وأعداؤهم يناهزون الألف في كمال العدة والسلاح.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الذي أنعم عليكم بنصره.

﴿إِذْ تَقُولُ﴾ مبشرًا ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ مثبتًا لجنانهم: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ○ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ أي: من حملتهم هذه بهذا الوجه.

﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ أي: معلمين علامة الشجعان.

واختلف الناس، هل كان هذا الإمداد حصل فيه من الملائكة مباشرة للقتال، كما قاله بعضهم أو أن ذلك تثبيت من الله لعباده المؤمنين، وإلقاء الرعب في قلوب المشركين كما قاله كثير من المفسرين.

ويدل عليه قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ وفي هذا أن الأسباب لا يعتمد عليها العبد بل يعتمد على الله.

وإنما الأسباب وتوفرها فيها طمأنينة للقلوب وثبات على الخير.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ أي: نصر الله لعباده المؤمنين لا يعدو أن يكون قطعًا لطرف من الكفار أو ينقلبوا بغيظهم لم ينالوا خيرًا كما أرجعهم يوم الخندق بعدما كانوا قد أتوا على حرد قادرين أرجعهم الله بغيظهم خائبين.

(١٢٨) ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ لما أصيب ﷺ يوم «أحد» وكسرت رباعيته وشج في رأسه جعل يقول: «كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم وكسروا رباعيته» فأنزل الله تعالى هذه الآية وبين أن الأمر كله لله، وأن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء، لأنه عبد من عبيد الله، والجميع تحت عبودية ربهم، مدبَّرون لا مدبِّرون.

وهؤلاء الذين دعوت عليهم أيها الرسول أو استبعدت فلاحهم وهدايتهم، إن شاء الله تاب عليهم ووفقهم للدخول في الإسلام وقد فعل فإن أكثر أولئك هداهم الله فأسلموا، وإن شاء عذبهم فإنهم ظالمون مستحقون لعقوبات الله وعذابه.

(١٢٩) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يخبر تعالى أنه هو المتصرف

في العالم العلوي والسفلي وأنه يتوب على من يشاء فيغفر له ويخذل من يشاء فيعذبه.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فمن صفته اللازمة كمال المغفرة والرحمة، ووجود مقتضياتهما في الخلق والأمر، يغفر للتائبين ويرحم من قام بالأسباب الموجبة للرحمة قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

تم الجزء - المجلد الأول - من «تيسير الرحيم الرحمن في تفسير القرآن» بخط مؤلفه عبدالرحمن الناصر بن سعدي ٩ ربيع أول ١٣٤٣ غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم، ويليه المجلد الثاني أوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾.



الفهرس